الجزء الثاني المجلد الرابع والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العراقي

جمادى الآخرة ١٤٠٣ هـ
نيسان ١٩٨٣ م

التورية
وخلوّ القرآن الكريم منها

الدكتور محمد جابر فياض

كلية الآداب / جامعة بغداد

المقدمة

ترجع بذرة موضوع البحث الى أكثر من عشر سنوات خلت . إذ تألفت لجنة من مدرسي العربية للثانويات ، ومفتشي الاختصاص ، لدراسة كتاب البلاغة لهذه المرحلة ، وتقديم توصياتها بشأنه . وكنتُ واحداً من أعضائها فقرأت في المقدمة — ولم تكن للمؤلفين الفاضلين — عبارة والقرآن الكريم طافح بالمحسنات البديعية كالسجع والجناس والتورية ... فاستغربت أن يكون في القرآن الكريم الذي أنزله الله تبياناً لكل شيءٍ إيهامٌ متعمد مقصود . وهو مااستقر في ذهني عن التورية مذ كنتُ طالباً في الثانوية .

فما ان اجتمعت اللجنة حتى أبديت لها وجهة نظري في امتلاء القرآن بالتوريات مع مابين طبيعتيهما وأغراضهما من تباين واختلاف .

فاقتنعت اللجنة بخلو القرآن الكريم منها . وقد سرني اقتناعها لكونها كانت تضم غير قليل من إخواني الذين لهم في نفسي ما لهم من مكانة، ولانهم — كانوا بحق — من أبرز مدرسي العربية ومفتشيها، ولأني ماكنت قد عدت — فيما ذهبت اليه — الى أي من مراجع البلاغة ، قديمها أو حديثها ، وإنما استنتجته من الصورة المرتسمة في ذهني عنهما .

وفي الاجتماع الثاني استوقف الأخ الفاضل مؤلف الكتاب اللجنة ، لمناقشة ماكنا قد فرغنا منه ، وأبرز لنا نصوصاً لبلاغيين مشهورين ، منهم السكاكي والقزويني وغيرهما نصوا فيها صراحة على وجود التورية في القرآن .

ومثلوا لها بآيات ، منها قولهُ تعالى : « الرَّحْمنُ على العَرْشِ اسْتَوَى » (٥ طه ٢٠) وقوله « والسّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ ، وَإنّا لَمُوسِعُونَ » (٤٧ الذاريات ٥٠) وقول السكاكي : إن أكثر متشابهات القرآن من الايهام الذي سَمّى التورية به .

واستحضرت الصور البلاغية — بعد أن أذهلتني المفاجأة للحظات — وناقشت ماذهب اليه هؤلاء البلاغيون . وانتهيت الى أن هذه الآيات ان هي الا استعارات لاغير .

وبعد أخذ ورد ، ونقاش طال شيئاً ما ، اقتنع الاخوة أعضاء اللجنة بما انتهيت اليه ، وطلبوا مني أن أكتب بحثاً في التورية وخلو القرآن الكريم منها فوعدتهم بكتابته ، غير أني شغلت بجهود علمية أخرى . ثم شغلتني رسالة الدكتوراه عن كل ماسواها . ولم ييسر الله لتلك البذرة أن تنمو وتكتمل قبل الآن ، فأحمده سبحانه وتعالى أن مكنني من الوفاء بوعدي لاخواني الاعزاء ، الذين كان لهم فضل إغرائي ببحث هذا الموضوع .

وإني لأرجو أن أكون قد وفقت فيه ، والإ فعذري أنّ هذا مبلغ علمي وقصارى جهدي . ولا يكلف اللهُ نفساً الإ وسعها . ولغيري أن يكمل ماقد يراه فيه من نقص ، ويصلح ماقد يراني أخطأت فيه . وإني لأذن صاغية لأية ملاحظة . والمؤمن مرآة أخيه . وفوقَ كل ذي علمٍ عليم .

★ ★ ★

التورية لغة

الواو والراء والحرف الناقص تدل على الستر والاخفـاء ، كما تدل على الإظهار والإبراز . ففي المعنى الأول ، قال أبو عمرو : التورية الستر ، يقال منه وَرَّيْتُ الخَبَرَ أُوَرِّيه تَوْرِيَةً : اذا سترته واظهرت غيره (١)

وفي الحديث أنَّ رسول الله — صلى اللهُ عليه وسلم — كان إذا أراد سفراً ورّى بغيره (٢) وذهب الخليل الى أن الوَرَى : الأنام الذين على وجه الأرض في الوقت ، ليس من مضى ، ولا من يتناسل بعدهم ، فكأنهم الذين يسترون الأرض بأشخاصهم (٣) .

وقال أبو زيد : الوَرِيُّ الضَّيفُ . . . وسمي وَرِيّاً لأنَّ بيته يواريه (٤) ويقال فلان وَرِيُّ فلان : جاره الذي تواريه بيوته وتستره (٥) .

ووارَيْتُ الشيءَ ، ووَرَّيْتُه بمعنى واحد . ففي التنزيل العزيز « ماووريَ عنهما » (٢٠ الاعراف ٧) أي : سُتِرَ . وقرِئَ « وُرِّيَ عنهما » بمعناه (٦) وتوارى هو : استتر . قال تعالى : « يَتَوارى من القَومِ مِنْ سُوءِ مابُشِّرَ به » (٥٩ النحل ١٦) .(٧) .

ويقال : الوراء وَلَدُ الوَلَد ، أرادوا بذلك تفسير قوله تعالى : « ومِنْ وَراءِ إسحقَ يَعْقُوب » (٧١ هود ١١) (٨)

وذهب أبوعُبيد الى أن وَرَّيْتُ الخَبَرَ أُورِّيه تَوْرِيَةً —إذاسترته وأظهرت غيره — مأخوذ من وراء الانسان ، فقال :

« ولا أراه مأخوذاً الإ من وراء الانسان ، لأنه إذا قال : وَرَّيْتُه ، فكأنهُ

---

(١) تهذيب اللغة — ورى

(٢) لسان العرب — المادة ذاتها ، وخرجه السيوطي في الجامع الصغير — ١٠١/٢ ورمز له بعلامة الصحيح .

(٣) مفردات الراغب الاصفهاني — المادة ذاتها

(٤) تهذيب اللغة — المادة ذاتها

(٥) المرجع نفسه — المادة ذاتها

(٦) اللسان — المادة ذاتها

(٧) مقاييس اللغة — المادة ذاتها

(٨) المرجع نفسه — المادة ذاتها

، إنما جعله وراءهُ حيث لايظهر » (٩) .

وذهب كراع الى أنه ليس من لفظ وراء، لأن لام وراء همزة.(١٠)وغير خاف أن أبا عُبيد لم يرد الاشتقاق اللفظي للتورية ، وانما أراد المعنى ولذلك قال : « اذا قال وَريته ، فكأنه إنما جعله وراءه حيث لا يظهر » . وهذا الذي ذهب اليه منسجم مع مايقتضيه المنطق اللغوي الحديث ، من أنَّ المعنويات البعيدة ، مأخوذة من أصول حِسِّيّة قريبة فقول كراع لا يدفع ماذهب اليهأبوعبيد مادام الاشتقاق اللفظي غير مراد.ولو أراده أبو عبيد لما أبعد لأن لام وراء غير بعيدة عن الألف المقصورة المنقلبة عن الياء . اذ يَطّرِدُ إبدال الهمزة ياء في مثل (رئم – ريم ، بئر – بير ، سائل – سايل) .

وفي اللغة ماينا ظر (ورى – وراء) مثل (هوى – هواء ، روى – رواء ، سما – سماء) وليس من المصادفة تقارب معانيها والفاظها، وان تباينت ووضعت في مواد لغوية مختلفة .

ومهما يكن من شيء فان ماذهب اليه كراع لايُغَيِّر من دلالة المادة اللغوية على الستر والاخفاء .

واذا جاء الوري بمعنى الستر والاخفاء ، فقد جاء بمعنى الاظهار والابراز أيضاً ، قال ابن الاعرابي:اذا أخرج الزند النار قيل : وَرَى الزندُ يَري ، وأنا أَوْرَيْتُهُ إيراءً (١١) . وقال أبو الهيثم : وَرَت النارُ تَرِي وَرْياً وَرِيّةً ، مثل : وعَتْ تَعِي وَعْياً وَعِيّةً . وَوَرَيْتُهُ أَريه وَرْياً وَرِيّةً . وأوريت النار أوريها إيراءً (١٢) .

وقال أبو زيد : أريت النار تأرية ، ونميتها تنمية ، وذكيتها تذكيةً : اذا رفعتها (١٣) .

---

(٩) صحاح اللغة – المادة ذاتها
(١٠) اللسان – المادة ذاتها
(١١) الصحاح –المادة ذاتها
(١٢) التهذيب – المادة ذاتها
(١٣) المرجع نفسه – المادة ذاتها

ومن المجاز قولهم : ورت بك زنادي ، ووريت . واستوريت فلاناً رأياً : سألته أن يوريه لي . كما يقال : استضيئ برأيه . وسمع أنهم قالوا : أورنيه بمعنى أرنيه ، وهو من الوري ، أي : أبرزه لي (١٤) . ومسك وارٍ : رفيع جداً (١٥) .

وقولهم وراءك : خلفك وقدامك . ويؤيده قوله تعالى : « وكان وراءهم ملك » (٧٩ الكهف ١٨) أي أمامهم (١٦) .

ومن هـــذا يتضح أن المادة اللغوية الواو والراء والألف المقصورة وما اشتق منها تدل على الستر والاخفاء ، كما تدل على الابراز والإظهار كذلك ، وعليهما مجتمعين في وقت واحد ، في كل ماجاء منها دالاً على الستر والاخفاء لأن مايستر ويحجب يتطلب ساتراً يستره ، وحاجباً يحجبُه .

فالساتر ظاهر بارز ، والمستور خفي كامن . وقد تجلى هذا في أكثر مفردات المادة اللغوية ، والتورية منها خاصة .

ومن هنا كانت التورية إخفاء شيء باظهار غيره كما أجمع اللغويون .

التورية اصطلاحا (بلاغة)

يبدو أن تنبه البلاغيين للتورية ، والتفاتهم اليها ، واهتمامهم بها ، ووضعهم حداً لها ، كان قد تأخر — غير قليل — عن التفاتهم الى غير واحد من الوان البديع الاخرى لفظية ومعنوية ، كالجناس والطباق وغيرهما .

ولعل اسامة بن منقذ — ٥٨٤ هـ يمكن أن يعد من أوائل من أوصل الينا حد التورية بقوله « اعلم أن التورية : هي أن تكون الكلمة بمعنيين ، فتريد أحدهما ، فتوري بالآخر » (١٧) .

وآثر السكاكي — ٦٢٦ هـ تسميتها بالايهام فقال :

(ومنه الايهام : وهو أن يكون للفظ استعمالان : قريب وبعيد ، فيذكر

(١٤) اساس البلاغة — المادة ذاتها
(١٥) القاموس المحيط — المادة ذاتها
(١٦) المصباح المنير — المادة ذاتها
(١٧) البديع في نقد الشعر — ٦٠

لايهام القريب – في الحال – الى أن يظهر أن المراد البعيد) (١٨) .

ويبدو أن عنايته بايضاح طبيعة الايهام أكثر من عنايته بصياغة الحد . وقد وفق فيما أراده من إيضاح .

وكأن القزويني – ٧٣٩ هـ قد أحَسَّ بما في حَدِّ السكاكي من إطالة تضيق بها الحدود ، فذهب الى القول : (التورية – وتسمى الايهام أيضاً وهي : أن يطلق لفظ له معنيان : قريب وبعيد ، ويراد البعيد منهما) (١٩) .

وكان من الطبيعي أن يكرر أصحاب الشروح والحواشي لتلخيصه ، وايضاحه قوله في مؤلفاتهم كبهاء الدين السبكي – ٧٧٣ هـ ، وسعد الدين التفتازاني ٧٩١ هـ ، وأبي يعقوب المغربي – ١١٢٠ هـ . والدسوقي (٢٠) .

أما ابن قيم الجوزية – ٧٥١ هـ فقد تحدث عن التورية بما لا ينطبق عليها قائلاً : (التورية : وهو أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى ، ثم يردها بعينها ويعلقها بمعنى آخر . وهو في القرآن كثير ، من ذلك قوله تعالى : «حَتَّى نُؤْتَى مثلَ ما أُوْتِي رُسُلُ اللهِ ،اللهُ أَعلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَه » (١٢٤ الانعام ٦) (٢١) .

وليس هذا من التورية في شيء ، لا من قريب ولا من بعيد . والخطأ – كما يبدو لي – جاء من تحريف النساخ للترديد إلى التورية . لأن ماذكره هو حد الترديد لا التورية . (٢٢) وقد تنبه السيوطي ٩١١ هـ الى هذا ونبه إليه من غير أن يذكر صاحب الحد (٢٣) .

أما ابن أبي الاصبع – ٦٥٤ هـ فقد حدها بقوله :

---

(١٨) مفتاح العلوم – ٢٢٦

(١٩) التلخيص – ٣٥٩–٣٦٠ ، والايضاح – ٣٥٣/٢

(٢٠) شروح التلخيص – ٣٣٢/٤–٣٣٣

(٢١) الفوائد – ١٣٦

(٢٢) انظر بديع القرآن – ٩٦ ، الخزانة – ١٦٤

(٢٣) عقود الجمان – ١١٨

(التورية – وتسمى التوجيه – وهي : أن تكون الكلمة تحتمل معنيين ، ويستعمل المتكلم أحد احتماليها ويهمل الآخر . ومراده ماأهمله ، لا مااستعمله) (٢٤) ولو استعمل المتكلم أحد احتمالي الكلمة ، وأهمل الآخر ، لما كان له أن يريد ماأهمله بعد إهماله . ولو أراده لما عرف عنه ، لافي الحال ولا في الاستقبال . خلافاً لما عليه التوريات من معرفة ماأراده أصحابها بها . ان لم تكن تلك المعرفة في الحال ففي الاستقبال . وان لم تتهيأ المعرفة لهذا ، تهيأت لذاك .

وقال شهاب الدين الحلبي – ٧٢٥ هـ : (الايهام – ويقال له التورية والتخييل – وهو : أن تذكر الفاظ لها معانٍ قريبة وبعيدة . فاذا سمعها الانسان سبق الى فهمه القريب ، ومراد المتكلم البعيد) (٢٥) .

وهذا الذي ذكره الحلبي هو مانقله العلوي – ٧٤٩ هـ عن المطرزي – ٦١٦ هـ ونسبه إليه في باب التخييل ، على أنه واحد من تعاريف التخييل الثلاثة (٢٦)

وقال صفي الدين الحلي – ٧٥١ هـ : (هي أن يأتي المتكلم بلفظة مشتركة بين معنيين : قريب وبعيد ، فيذكر لفظاً يوهم القريب ، الى أن يجيء بقرينة يظهر منها أن مراده البعيد) (٢٧) .

ولا أرى مايلزم الموري بأن يأتي بلفظ يوهم القريب ، غير لفظ التورية ذاته ، كما لاأرى مايلزمه بأن يأتي بقرينة ، تظهر أن مراده البعيد . فقد تكون القرينة حالاً لا مقالاً ، كما هو الشأن في التوريات المجردة . فما سميت بهذا ، إلا لتجردها من كل مايشير الى أيّ من معنييها : القريب والبعيد .

وانتهى ابن حجة الحموي – ٨٣٧ هـ الى أن (التورية – ويقال لها الايهام والتوجيه والتخيير – وهي في الاصطلاح :

أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان حقيقيان ، أو حقيقة ومجاز . أحدهما قريب ، ودلالة اللفظ عليه ظاهرة . والآخر بعيد ، ودلالة اللفظ

---

(٢٤) تحرير التحبير – ٢٦٨ ، بديع القرآن – ١٠٢
(٢٥) حسن التوسل – ٢٤٩
(٢٦) الطراز – ٣/٤–٥
(٢٧) الخزانة – ٢٤٣

عليه خَفِيّة ، فيريد المتكلم المعنى البعيد ، ويُوَرِّي عنه بالمعنى القريب . فيوهم السامع – أول وهلة – أنه يريد القريب ، وليس كذلك .

ولأجل هذا سمي هذا النوع إيهاماً) (٢٨).

ومع ماجاء عليه هذا القول من اسهاب صلح معه أن يكون شرحاً للتورية ، لا حَدّاً لها ، فقد ركن اليه الذين جاءوا بعده – أو أكثرهم – كالسيوطي ، وابن معصوم (٢٩) وغيرهما .

كما آثره المحدثون من البلاغيين – أو أكثرهم – في كتبهم البلاغية التدريسية (٣٠) ، لوضوحه في أذهان الدارسين أكثر من غيره ، وإلا فان ماحدّها به السكاكي أولى من هذا الذي انتهت إليه ، وأقرب الى طبيعة الحدود ، وماتكون عليه من إيجاز .

طبيعة التورية ودواعيها واهميتها

بعد الذي وقفنا عليه من معنى التورية لغة واصطلاحاً يمكن الانتهاء الى انها ليست ايهاماً فحسب ، وانما هي ايهام متعمد مقصود . فهي قائمة على الخداع والتضليل .

واذا كانت التورية كذلك فما هي اهميتها في الحياة اليومية ؟ وما الدواعي التي تدعو اليها ، والحياة الانسانية الفاضلة قائمة على الصدق والصراحة لا على الغش والخداع والتضليل ؟ ولماذا عني بها الفضلاء من الناس ، وعدوها من الفنون البلاغية ، وتولوا شرحها وايضاحها ، والتمثيل لها ، وتدريسها في المساجد والمدارس كأيّ من فنون البلاغة الاخرى ؟ بل ان منهم من فضلها على كثير

---

(٢٨) الخزانة –٢٣٩

(٢٩) عقود الجمان – ١١٥ ، أنوار الربيع – ٥/٥

(٣٠) علوم البلاغة – المراغي – ٣٣٨–٣٣٩ ، جواهر البلاغة – الهاشمي – ٣٦٢–٣٦٣ ، فنون بلاغية – الدكتور أحمد مطلوب – ٢٩٣– البلاغة العربية – له أيضاً – ٢٩٨–٢٩٩ ، البلاغة – له مع الدكتور عمر حامد ملا حويش ، وعبدالرضا صادق – ٤٦ ، البلاغة والتطبيق – له مع الدكتور حسن البصير – ٤٢٧ .

غيرها ، وعُني بها أكثر من سواها .

الحق ان التورية – مهما قيل عما فيها من إيهام وتضليل أو يقال – ليست كذباً ولا قريبة من الكذب .

واذا عرفنا أن من الكذب ذاته مايدخل الجنة ، ومن الصدق مايدخل النار كصدق الأسير لآسره ، وكذبه عليه . وأن الحياة لاتجري على وتيرة واحدة . بل تتخللها مواقف ، لكل منها مايتطلبه ويقتضيه ، استطعنا أن ندرك دور التورية ، ونقدرها حق قدرها .

فالتورية – كما اسلفت – ليست كذباً ولا قريبة من الكذب . كما انها ليست صدقاً صريحاً ظاهراً . وانما هي صدق مقنع ، على من رغب فيه أن يزيل القناع عنه . وكونه مقنعاً لايُغَيِّرُ من طبيعته شيئاً .

ويمكن أن نتبين هذا كله في التوريات الأصيلة المحضة .

فهذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقد سئل في خروجه الى بدر : ممن القوم ؟ فما كان له أن يكشف سِرّه وسِرَّ أصحابه ، فيصل خبرهم الى عدوهم . وحاشاه – صلوات الله وسلامه عليه – أن يكذب ، حتى في مثل هذا الموقف . وهو الصادق الأمين قبل بعثته ، فيكف به بعدها ؟ والذي يزيد الموقف حراجةً ، أن خير البشر لايعرض عن سؤال سائل ، وليس في سؤال الرجل مايلاذ معه بالصمت ، فما المخرج ؟ ؟ والى أيّ من الفنون البلاغية يعمد ؟ ؟

لقد عمد – صلى الله عليه وسلم – الى التورية دون غيرها ، قائلاً على الفور :

(من ماء) . فانصرف ذهن الرجل الى أنه ذكر له قبيلته ، وشغل عنهم باستحضار القبائل العربية التي يعهدها ، وتولى وهو يردد : من ماء – من ماء ! (٣١) .

(٣١) المثل السائر – ٧٩ ، وأكثر الكتب البلاغية بعده ان لم تكن كلها في الحديث عن التورية .

وذهب بعض من تحدثوا عن هذه التورية الى أن الرجل تهيأ له أنهم من العراق لانتشار هذا الاسم فيه (٣٢) .

ومهما يكن من شيء ، فأتّى للرجل أن يعرف – في تلك اللحظة – أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أراد الماء الحقيقي ، أصل كل الأحياء ؟ ؟ فالرسول – صلى الله عليه وسلم أخبر السائل بالحقيقة . فالمقال مقال حق وصدق ، ولكن المقام أو الحال حجب المقال عن ذهن السامع .

ومثل هذا قول أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – في الهجرة الى المدينة . فقد سُئل عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فهل ينتظر منه أن يصرح للسائل باسمه، ويكشف له عن حقيقته في هذا الموقف الخطير ؟ ؟ وهل يلجأ مثله الى الأخبار بغير الحقيقة،ويتخلص من هذا الحرج كما يتخلص السذج من الناس ، المتهاونون بالحق والحقيقة ، وهو على ماهو عليه – رضي الله عنه – من الفطنة، وحضور البديهة،وسمو الخلق ؟ ؟ طبعاً لا فلقد استعان بحضور بديهته ، وأجاب السائل على الفور بقوله : (هادٍ يهديني الطريق) أو السبيل (٣٣) ، فانصرف ذهن السائل الى أنه – صلى الله عليه وسلم – واحد من ذوي الخبرة بالطرق والمسالك . وكانت الاستعانة بهم شائعة معروفة .

أما أبو بكر – رضي الله عنه – فقد أخبره بالحقيقة ، صادقاً كل الصدق . إذ كان صلى الله عليه وسلم – هاديه وغيره من المسلمين الى الاسلام .

فهذان مثلان قديمان ، أصيلان كل الأصالة ، يوضحان طبيعة التورية ويكشفان لنا أن في الحياة مايكشف وما يستر ، ويصرَّح به ولا يصرَّح ، ويبرزان جمال التورية ، وجلالة قدرها ، وعلو مكانتها ، إذا جاءت عفواً ، واستجابة لداع من دواعيها . وما أكثر هذه الدواعي مادامت هناك رغبة ورهبة ، وهناك مايعلن ، ، وما لا يعلن لسبب أو لآخر . ولكن يظل الايهام

(٣٢) البديع في ضوء الدراسات القرآنية – ١١٠ عن الوسيلة الأدبية ولم أجد هذا فيها .
(٣٣) صحيح البخاري – ٧٩/٥

إيهاماً ، لاتقوم الحياة به ، وإن تطلبته في مواقف كثيرة مختلفة .

ومن هنا كانت التوريات المحضة الموفقة الناجحة قليلة نادرة . فما كل من تعرض له مثل هذه المواقف يمكنه أن يورّي مثل هاتين التوريتين واشباهها

ولقد أشار غير واحد من البلاغيين الى قلتها في المطبوع من أدبنا العربي لا المصنوع منه، فقال ضياء الدين ابن الاثير – ٦٣٧ هـ : (المسلك الى مثل هذه المعاني ، وتصحيح المقصد فيها عسرجداً . لاجرم ان الاجادة فيها قليلة)(٣٤) واضاف قائلاً : (وأما القسم الآخر – وهو النقيض – فانه أقل استعمالاً من القسم الذي قبله ، لانه لايتهيأ استعماله كثيراً) (٣٥) .

وقال ابن أبي الاصبع معقباً على تورية عمر بن أبي ربيعة : (وهذه أحسن تورية وقعت لمتقـــدم ، على قلتها في اشعار المتقدمين) (٣٦) .

وقال الصفدي – ٧٦٤ هـ : (ومن البديـع ماهو نادر الوقوع ، ملحق بالمستحيل الممنوع . وهو نوع التورية والاستخدام ، فانه نوع تقف الافهام حسرى دون غايته عن مرامي المرام .

نوعٌ يَشُقُّ على الغَبِي وُجُودُهُ من أيِّ بابٍ جاءَ يَغْدُو مُقفلا

لايفرع ضبّتَهُ فارع ، ولا يقرع بابه قارع ، إلاّ من تنحو البلاغة نحوه في الخطاب ، وتجري ريحها رخاء حيث أصاب) (٣٧) .

وقالى الحموي : (لان هذا النوع – أعني التورية – ماتنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حذاق الشعر ، وأعيان الكتّاب . ولعمري إنهم بذلوا الطاقةفي حسن سلوك الأدب، الى ان دخلوا إليه من باب ، فان التورية من أغلى فنون الأدب ، واعلاها رتبة . وسحرها ينفث في القلوب ، ويفتح لها أبواب عطف ومحبة . ماأبرز شمسها من غيوم النقد إلا كُلّ ضامر مهزول ، ولا أحرَزَ قصبات سبقها – من المتأخرين – غير الفحول) (٣٨) .

(٣٤) المثل السائر – ٣/٨٠
(٣٥) المرجع نفسه – ٣/٨٢
(٣٦) تحرير التحبير – ٢٦٨–٢٦٩
(٣٧) الخزانة – ٢٣٩–٢٤٠
(٣٨) المرجع نفسه – ٢٣٩

وقال أيضاً : (وكانت خواطر المتقدمين عن نظم التورية بمعزل ، وأفكارهم – مع صحتها – ماخيّمت عليها بمنزل . لكنها ربما وقعت لهم عفواً ، من غير قصد لأنهم – على كل حال – ولاة هذا الشأن ، وأدلة هذا الركب) (٣٩) .

وأضاف قائلاً : (قلت : ولهذا وقع الاجماع على أن المتأخرين هم الذين سموا الى أفق التورية ، واطلعوا شموسها ، ومازحوا بها أهل الذوق السليم ، لما أداروا كؤوسها) (٤٠) .

والذي يبدو لي أن عسر الاتيان بها ، والاجادة فيها ، إنما يرجع الى قلة دواعيها ، فضلاً عما تقتضيه التورية ، وتتطلبه من تمكن ، وحضور بديهة . وزاد في عسرها إصرار المتأخرين على الاتيان بها ، والإجادة فيها من غير ماداعٍ يدعوهم إليها ، ومناسبة تقضي بايرادها ، خلافاً لما كان عليه المتقدمون .

ولهذا جاءت توريات الأقدمين قليلة غير أنها في غاية الروعة والجمال .

وجاءت توريات المتأخرين كثيرة ، وأكثر من كثيرة ، ولكنها فَجّة ، غير مستساغة ، وقلّ منها ماجاء مستساغاً مقبولاً . وما ذلك إلا لاصطناعها اصطناعاً ، وتكلفها تكلفاً ، فخلعوا بهذا عنها ، رداء جمالها وبهائها (فلولا مالحق بها من تَعمُّلٍ وإسراف لظلّت فناً جميلاً يستعين به الأدباء في كل زمان) (٤١) ولكن صنيع المتأخرين بها أدى الى الزهد فيها ، والعزوف عنها بدلاً من الاقبال عليها ، فأضر بها هؤلاء المتأخرون، فيما ظنوا أنهم أحسنوا به اليها . ومن الباحثين المحدثين من ذهب الى أنهم لم يضروا بها فحسب وإنما أضروا بالبديع كله (٤٢) ومنهم من عدّ صنيعهم بها سمة من سمات الانحطاط الأدبي (٤٣) :

ومهما يكن من شيْ فالتورية شيْ وصنيعهم شيْ آخر . فالداء لا يقلل

(٣٩) الخزانة – ٢٤٠ (٤٠) المرجع نفسه – ٢٤١

(٤١) فنون بلاغية – ٢٩٨ ، البلاغة العربية – ٣٠٠

(٤٢) التورية فن أصيل – الدكتور عمر حامد ملا حويش – ٥١

(٤٣) الصور البديعية – الدكتور حفني محمد شرف ٢٩٢/٢

من قيمته وأهميته خطأ من أخطأ في الانتفاع به .

اصالة التورية وقدمها

لقد أظهرت تورية الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، وتورية أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – عراقة التورية في أدبنا العربي ، وأصالتها فيه ، ويكفيها – في هذا – استخدامهما لها .

ولم يذهب أحد – من القدامى أو المحدثين – إلى أنهما ابتدعاها ابتداعاً، ولم يسبق لعربي أن استخدمها قبلهما . وليس لأحد أن يذهب الى هذا ، مع ماعرف عن الجاهليين من لَسْنٍ وفصاحة وبلاغة أشار اليها القرآن الكريم في أكثر من موضع فيه ، حتى انه جعلها من سماتهم المميزة لهم في قوله تعالى « ولَتَعْرِفَنَّهُم في لَحْنِ القَوْلِ » (٣٠ محمد ٤٧) .

كما أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – صور لنا بيانهم أجمل تصوير بقوله : « إنَّ مِن البَيَانِ لَسِحْرا » (٤٤) .

وغير خاف أنَّ ماوصل إلينا عنهم ،إنْ هو إلاّ أقل من القليل مما كان لهم . ومع ذلك ففيه مافيه من لحون ،وألغاز وحكم وأمثال وأقوال مأثورة وأجوبة مسكتة ،وغيرها من جوامع كلمهم في منثورهم ومنظومهم وغير خاف – كذلك – أنَّ دواعي التورية ومواقفها ليست وقفاً على عصر من العصور ، ولا على قوم دون غيرهم . فالحياة هي الحياة ، والناس هم الناس ، لهم فيها مايظهرون وما لا يظهرون . فوجود التورية في العصر الجاهلي هو المقبول المعقول ، وخلوّه منها غير معقول ولا مقبول ، وإنْ لم يصل الينا شيء من نصوصها . ولكنَّ المتعصبين لها ،لم يكفهم هذا على ما يبدو – ولم يقنعهم ماجاء منها على لسان رسول – صلى الله عليه وسلم – وصاحبه – وخليفته رضي الله عنه – ولاماجاء في

(٤٤) صحيح البخاري – ٢٥/٧ . وانظر تخريجه في الأمثال في الحديث النبوي – الدكتور محمد جابر فياض – ٤٨٤/٢ .

الحديث من انه صلى الله عليه وسلم (كان إذا أراد سفراً وَرَّى بِغَيْرِه)(٤٥) وعزَّ عليهم ألاّ يكون لها نصوص جاهلية تمكنهم من أن يثبتوا بالأدلة النّصيّة – إن جاز التعبير – ماهو ثابت بالأدلة العقلية المنطقية . فراحوا يلتمسون لها الشواهد في التراث الجاهلي علّهم يجدون لها نصيباً فيه ، وإذا بهم يقفون على قول النابغة للذبياني :

خَيْلٌ صِيامٌ ، وخَيْلٌ غَيْرُ صائِمَة
تَحْتَ العَجاجِ ، وَأُخْرَى تَعلكُ اللجما (٤٦)

وذهبوا الى ان للصيام – فيه – معنيين، أحدهما : القيام وهو البعيد (المراد) . والآخر : الامساك عن الطعام والشراب ، وهو القريب (غير المراد) . وأن الشاعر ورّى بالقريب عن البعيد ، وجاء بما يلائم المعنى القريب – (غير المراد) – بما يلائمه – بعده – ليصرف به الأذهان الى القريب، عن البعيد المراد إمعاناً في الايهام، وترشيحاً للتورية . وهو قوله (تعلك اللُجُما) فالتورية عندهم من التوريات المرشحة (٤٧) .

ولم يسالوا أنفسهم إن كان النابغة قد تعمد هذا الايهام أولا ؟

وإن كان قد تعمده فعلاً، فما الذي دعاه اليه ودفعه ؟؟ . وماهي المناسبة التي قيل فيها ، والسياق الذي جاء عليه ؟ ؟

ومهما يكن من شيء فالبيت من أبيات الشاعر المفردة ، إذ لم يصل الينا في مورده فضلاً عن المقطوعة أو القصيدة التي هو أحد أبياتها . ومع ذلك فأنه لاينصرف الى غير وصف الخيل ، والخيل – فيه – ليست في مرابطها ، ولا على معالفها، ولا في طراد للاغارة . فهي في موضع واحد ذكره الشاعر صراحة بقوله (تحت العجاج) : عجاج المعركة واقفة ، ومتحركة ، ومحتدمة غيظاً تعرك أو تعلك من غيظها اللجما .

(٤٥) الجامع الصغير – ١٠١/٢ . خرجه السيوطي عن الدارمي ورمز له بعلامة الصحيح وفيه (غزواً) مكان (سفراً) .

(٤٦) ديوانه بتحقيق البستاني – ١٣٠ (٤٧) الخزانة – ٢٤٠

هذه هي الصورة التي يطالعنا بها البيت ، فمن أين يجيء الامساك عن الطعام والشراب ؟ فهل صور البيت الخيول على معالفها كيما يمكن أن ينصرف الذهن الى أن منها الطاعمة ومنها الممتنعة عن الطعام ومنها ماتعلك يلجمها ، فلا هي طاعمة ، ولا ممتنعة ؟ وهب أنّ هناك من يمكن أن ينصرف ذهنه الى هذا أفلا يستوقفه قول الشاعر (تحت العجاج) فيسائل نفسه عن هذا العجاج الذي حشد الشاعر كل هذه الانواع من الخيول تحته ؟ وهب أنه وهم ، وتهيأ له أن الشاعر قال هذا في يوم مغبر ، فمن ذا يمكن أن يذهب إلى أن النابغة الذبياني ، لم يرد به غير الاشارة إلى خيل طاعمة ، وخيل غير طاعمة في هذا اليوم المغبر ، وأخرى تعلك اللُّجُما ؟؟

والذي له أبسط معرفة بالخيول والحياة العربية يعرف أنّ الخيول لاتُلْجم على معالفها ولا في مرابطها ، وإنما تلجم عند الشروع بركوبها . فما هو الحال الذي دعا الى مثل هذا المقال ، إنْ لم يكن تجمع كل هذه الهيئات والأحوال للخيول في موضع واحد ووقت واحد . هو وقت المعركة ومكانها ؟ ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فلا مكان للطعام لافي بيت الشاعر ، ولا في أذهان سامعيه وقارئيه .

هذا اذا سلمنا بما ذهبوا اليه من أن للصيام معنيين : القيام والامساك عن الطعام . فكيف يكون الأمر وليس للصيام غير معنى واحد : وهو الامساك عن كل شيء . وقد استشهد اللغويون على هذا ببيت النابغة ذاته ، فقال ابو عبيدة : « يقال لكل ممسك عن طعام أو شراب ، أو كلام ، أو عن اعراض الناس وعيبهم : صائم . قال النابغة الذبياني :

خَيْلٌ صِيامٌ ، وخَيْلٌ غَيْرُ صائِمَةٍ
تَحْتَ العَجاجِ ، وَخَيْلٌ تَعْلُكُ اللُّجُما) (٤٨)

وقال الراغب الأصفهاني : « الصوم في الاصل – الامساك عن الفعل

(٤٨) مجاز القرآن – ٦/٢

مَطعما كان أو كلاماً ، أو مشياً . لذلك قيل للفرس الممسك عن السير أو العلف صائم . قال الشاعر :

خيل صيام وأخرى غير صائمة

وقيل للريح الراكدة صومٌ ، ولاستواء النهار صوم ، لوقوف الشمس في كبد السماء . .) (٤٩) وقال الفيومي : « صام يصوم صوماً وصياماً ، قيل : هو مطلق الامساك في اللغة ثم استعمل في الشرع في إمساك مخصوص) (٥٠) .

فكيف يكون الامساك المخصوص الذي خصه الشرع هو المعنى القريب المتبادر الى الذهن في بيت النابغة الذبياني الجاهلي ؟ ؟ ؟

لهذا كله فالبيت أبعد مايكون عن التورية أو الأيهام المتعمد المقصود (٥١) أما الشاهد الآخر فهو قول عمرو بن كلثوم في معلقته :

مُشَعْشَعَةً كأنَّ الحُصَّ فيها إذا مالماءُ خالَطَها سَخِينا

إذ رأوا أن (سخينا) يمكن أن تكون من السخونة أو من السخاء (٥٢) .

وقد ذكر له شارحوه المعنيين فقال ابن الأنباري :

(اذا ما الماء خالطها سخينا ، قال أبو عمرو . معناه : إذا خالطها الماء وشربناها كنا أسخياء ، أي : ازداد سخاؤنا على ماكان عليه قبل شربناها .

وقال غيره : اذا ما الماء خالطها سخينا ، معناه : انها تمزج بالماء الحار. يقال : ماء سخين ، إذا كان مسخنا) (٥٣)

وقال الزوزني : (ومنهم من جعل سخينا — معناه : الحار من سخن يسخن سخونة . ومنهم من جعله فعلاً : من سخى — يسخى سخاءً . . .

يقول : اسقنيها ممزوجة بالماء ، كأنها من شدة حمرتها — بعد امتزاجها

---

(٤٩) المفردات — صوم .

(٥٠) المصباح المنير — المادة ذاتها

(٥١) وانظر الصور البديعية — ٢٨٠/٢ فقد استبعد الدكتور حفني محمد شرف ان يكون في البيت تورية .

(٥٢) الخزانة — ٢٤٠ ، والكتب البلاغية التي أخذت الشاهد عنها

(٥٣) شرح القصائد السبع — ٣٧٢ .

بالماء – ألقي فيها نَور هذا النبت الأحمر . وإذا خالطها الماء وشربناها وسكرنا ، جدنا بعقائل أموالنا ، وسمحنا بذخائر أعلاقنا .

هذا إذا جعلنا سخينا فعلاً . وإذا جعلناه صفة كان المعنى :

كأنها حال امتزاجها بالماء – وكون الماء حاراً – نَور هذا النبت) (٥٤) .

فلماذا لايأخذه أنصار التورية على أنه واحد من شواهدها القديمة ؟ ؟

وفاتهم أنَّ (سخينا) الفعل غير (سخيناً) الاسم ، وأن (سخينا) الفعل ليست لفظاً مفرداً ، وإنما هي جملة تامة بفعلها وفاعلها،وأن التورية في الألفاظ المفردة ، لافي الجمل ، وأنها لفظ له معنيان ... إلى آخر ماحَدُّوها به .

وَهَبْ أنَّ جملة (سخنيا) لفظ مفرد واحد وهو الاسم ، وأعرضنا عن الفعل وفاعله وكونهما جملة ، وأن لهذا اللفظ المفرد المعنيين اللذين اشاروا اليهما فهل كل الألفاظ المشتركة توريات ؟ ؟ وهم أنفسهم كانوا قد نَصُّوا صراحة على أنه لايصح أن يُعَدَّ كل لفظ مشترك تورية،إلاّ إذا كان المعنيان معروفين مشهورين ، إلا أن أحدهما أعرف من الآخر وأشهر (٥٥) .

وفاتهم كذلك أنْ يسألوا أنفسهم عن الايهام الذي أراد ابن كلثوم أن يوقع سامعيه به عن عمد وقصد . وعن الداعي الذي دعاه الى أن يتعمد إيقاعهم فيه ، مع أنَّ المعلقة في الفخر ، أراد بها أن تعرف مكانته وقومه .

الحق أنَّ ابن كلثوم لم يتعمد الايهام، وليس في بيته هذا مايوهم،لاعن قصد منه، ولا عن غير قصد . فقد استهلَّ معلقته بالخمرة، وَوَصْفها ووصْف تأثيرها ، في المورد المؤلف من أربعة أبيات جاء البيت الثاني منه .

فقال :

أَلا هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينا ولا تُبقِي خُمورَ الأَنْدَرِينا

مُشَعْشَعَةً كأنَّ الحُصَّ فيها إذا ماالماءُ خالَطَها سَخِينا

(٥٤) شرح المعلقات السبع – ٩٨

(٥٥) الخزانة – ٣٥٤-٣٥٥ ، عقود الجمان – ١١٨

تَجُورُ بِذِي اللُّبانَةِ عَنْ هَواهُ إذا ماذاقَها حَتّى يَلِينا
تَرى اللّحزَ الشّحيحَ إذا أُمِرَّتْ عَلَيْهِ لِمالِهِ فيها مُهِينا

فلم ينتقل منها الى غيرها ، ولم يتجاوزها ، لا للحديث عن نفسه وقومه ، ولا عن غيره وسياق البيت نفسه لاينصرف الى الجود والسخاء . لأن (سخينا) لاتصلح من حيث المعنى أنْ تكون جواباً للشرط في قوله (إذا ماالماء خالطها سخينا) لأنهم لايسخون لمجرد مخالطتها الماء . ولذلك ذهب القائلون بهذا الى ذكر مالم يذكره الشاعر فقالوا : إذا خالطها الماء وشربناها وسكرنا ، جُدْنا بعقائل . . . الخ فالسخاء نتيجة انتشائهم بها ، بعد خلطها وشربها ، وتمكنها من أن تفعل فيهم فعلها .

وَهَبْ أنَّ الشاعر طوى ذكر هذا كله ، فهل يرفع من شأنه أنه وقومهم انما يسخون بعد سكرهم وانتشائهم ، وكأنهم لايسخون قبل ذلك ، وهو مايوجبه القول ويفضي اليه من باب المخالفة ومفهومها ، كما يقول الأصوليون ورجال القانون .

وَلِنَدَعْ هذا جانباً ، ولنسأل عما يكون له من فضل في سخائه بعد شربها مع أنّه هو القائل في المورد ذاته .

تَرَى اللّحزَ الشّحيحَ إذا أُمِرَّتْ عَلَيهِ لِمالِهِ فيها مُهِينا

فاذا كانت هذه — الخمرة تحمل اللّحزَ الشحيح على إهانة مالِهِ فيها، بمجرد أن تَمُرَّ عليه فأنىّ له أن يفخر بسخائه ، بعد خلطها وشربها والانتشاء بها ؟ ؟

فالبيت — كما أسلفت — في الخمرة — وخلطها بالماء وأثر هذا المزج أو الخلط بها فلا تشعشع إلا بعد خلطها . والشعشعة التي ذكرها هنا ليست من مجرد المزج ، أي لم يُرد بها أنها خمرة مزجت بالماء فحسب ، وإنما أراد أنها تلألأت بهذا المزج ، آخذاً هذا من شعشعة الشمس : إذا أشرقت ونشرت

أشعتها (٥٦) . وهذا لايكون للخمرة قبل مزجها ولذلك قال الزوزني (اسقنيها ممزوجة بالماء كأنها من شدة حمرتها – بعد امتزاجها بالماء – أُلقي فيها نَوْر هذا النّبت الأحمر) (٥٧) .

ولهذا فلم يفخر ابن كلثوم بسخائه في هذا البيت ، وليس له أن يفخر بسخائه فيه وإنْ أراده .

وإذا كان ماذهبت إليه صحيحاً، فالشاهدان ليسا من التورية في شيء(٥٨) ونفي التورية عنهما لاينفي قدمها وأصالتها التي تحدثت عنها .

اسماؤها وأنسب هذه الاسماء لها

لقد سميت بالتورية والايهام والتوجيه والتخييل . ودرجها بعضهم في المغالطات المعنوية .

أولاً : التورية :– وهو ابرز اسمائها ، فقد اقتصر عليه دون غيره من اسمائها ابن منقذ ، وابن قيم الجوزية . وقدمه على غيره من اسمائها ، ابن أبي الاصبع وصفي الدين الحلي ، وابن حجة الحموي ، والسيوطي ، وابن معصوم ، والخطيب القزويني وأصحاب الشروح لتلخيصه . وقد آثروه على غيره من اسمائها لقربه من مطابقة المسمى،فقال الحموي : (والتورية أولى في التسمية لقربها من مطابقة المسمى ، لانها مصدر وريّت الخبر تورية : اذا سترته وأظهرت غيره ، كأن المتكلم يجعله وراء ظهره حيث لايظهر) (٥٩) وتابعه في هذا السيوطي وابن معصوم وغيرهما ممن جاءوا بعده .

(٥٦) القاموس المحيط – مادة (شع)
(٥٧) شرح المعلقات السبع – ٩٨ .
(٥٨) الصور البديعية – ٢/٢٨٠ حيث استبعد الدكتور حفني محمد شرف كونهما من التورية لبعد خواطر الشاعرين عنها .
(٥٩) الخزانة – ٢٣٩

وقد أصابوا في هذا،إذ المعنى الاصطلاحي للتورية لايكاد يختلف – في جوهره–عن معناها اللغوي ، ولهذا رأينا المعاصرين والمحدثين من البلاغيين يعنونها به . وهم – بعد هذا – بين مقتصر عليه ومقدم له (٦٠) .

ثانياً : الايهام : ولم يقتصر على تسميتها به غير السكاكي – فيما أعلم – وقدمه شهاب الدين الحلبي على غيره من اسمائها وتابعهُ في هذا النويري – ٧٣٣ هـ (٦١) . وإلا فهو ردف التورية ، في الكتب التي ذكرتهما معاً .

ولقد أشار البلاغيون الى أنها لم تُسَمَّ به إلا لما فيها من إيهام،فقال الحموي (. . فيتوهم السامع – أول وهلة – انه يريد القريب وليس كذلك . ولأجل هذا سمي هذا النوع إيهاماً) (٦٢) وقد أصابوا في هذا ، كما أصابوا في سابقه .

فالتورية إيهام في دافعها ، واسلوبها وغرضها . ولكن تظل أخص منه بمسماها وأكثر منه مطابقة ، للذي بين المعنيين الاصطلاحي واللغوي من وثيق الصلة .

ثالثاً : التوجيه : ولم يقتصر على تسميتها به أيٌّ ممن تحدثوا عنها . وقد جاء تالياً للتورية عند ابن أبي الأصبع وحده ، وتالياً لها وللايهام بعدها عند الحموي والسيوطي وابن معصوم .

ويبدو لي أنها سميت به لما وقع من تصحيف (الايهام بالياء المثناة الى (الابهام) – بالباء المفردة ، ردف التوجيه ، فما أن أطاق الابهام عليها حتى تبعه ردفه التوجيه : وإلا فالتوجيه ، أو الابهام شيء والتورية شيء آخر . وقد أفرد له الذين أطلقوه على التورية أنفسهم باباً خاصاً به في كتبهم . وما فطنوا الى أنهم أطلقوا مصطلحاً واحداً على لونين من الوان البديع بينهما مابينهما

(٦٠) الوسيلة الأدبية – ١٢١/١ ، البلاغة العربية في فنونها – الدكتور محمد علي سلطاني – ٢٩ وبقية الكتب البلاغية الحديثة .

(٦١) حسن التوسل – ٢٤٩ ، نهاية الأرب – ١٣١/٧

(٦٢) الخزانة – ٢٣٩ .

من تباين واختلاف . وهم حين أطلقوه عليها لم يُعَلِّلُوا سبب إطلاقه عليها ، على غرار مافعلوا في التورية والايهام . لذا فاني لاأرى مايدعو إلى عده اسماً من اسمائها ، وحشره مع ما لا يشاكله .

رابعاً : التخييل : ولم أجد من اقتصر على تسميتها به . ولم يلحقه بأسمائها – فيما أعلم – غير شهاب الدين الحلبي حيث قال :

(الايهام ، ويقال له التورية والتخييل : وهو أن تذكر الفاظاً لها معانٍ قريبة وبعيدة . فاذا سمعها الانسان سبق الى فهمه القريب ، ومراد المتكلم البعيد) (٦٣) ومثل بتورية عمر بن أبي ربيعة – أيها المنكح الثريا سهيلا .. الخ

والحلبي – على ماأظن – أخذ قول المطرزي – في التخييل – وصرفه الى التورية وهماً منه . وفي قول المطرزي مايعين على هذا الوهم في ذكره القريب والبعيد – اما وهم الحلبي فلأنّه لم يفطن الى أن كل الذين تحدثوا عن التورية كانوا قد تحدثوا عنها على أنها لفظ (مفرد) وليست (ألفاظاً) مجموعة لكل منها معنى قريب وآخر بعيد كما أن العلوي كان قد نقل هذا الذي ذكره الحلبي عن المطرزي لا عن الحلبي ، وأورده على أنه واحد من تعاريف التخييل الثلاثة التي أوردها . وآثر التعريفين الآخرين عليه . بل لمَحَّ إلى نقده قائلاً (إنّ قول المطرزي ليس على جهة التحديد ، وإنما هو وارد على جهة شرح أحكامه وضبطها) (٦٤) ولم يشر – كالحلبي – في كل ماتحدث به الى التورية لا من قريب ولا من بعيد ، ولا مثل بأمثلتها .

ومهما يكن من شيء ، فلم يتابع الحلبي في الحاق التخييل بأسماء التورية غير النويري والحموي والسيوطي وابن معصوم . وكل هؤلاء كانوا قد جاءوا به آخر اسمائها .

---

(٦٣) حسن التوسل – ٢٤٩

(٦٤) الطراز – ٥/٣

ولم يعلل أي منهم تسميتها به . ولم يلتفت أي منهم الى أن التخييل ليس من الوان البديع ، وأنه مأخوذ من (الخيال) : الصورة ، وأنه يقابل (الحقيقة) أو الواقع . وأن اللغويين كانوا قد نبهوا الى هذا فضلاً عن البلاغيين . ويكفينا في هذا قول الراغب الاصفهاني (الخيال : أصله الصورة المجردة ، كالصورة المتصورة في المنام ، وفي المرآة ، وفي القلب بعيد غيبوبة المرئي . ثم تستعمل في صورة كل أمر متصور . وفي كل شخص دقيق يجري مجرى الخيال .

والتخييل : تصوير خيال الشيء في النفس . والتخيّل : تصور ذلك ...) (٦٥) . وهو كذلك عند البلاغيين ، فهذا شيخ البلاغيين عبدالقاهر الجرجاني . يقسم المعاني الى قسمين قائلاً : (ويجب أن نتكلم أولاً على المعاني . وهي تنقسم – أولاً – الى قسمين : عقلي وتخييلي وكل واحد منهما يتنوع .)(٦٦) ويضيف قائلاً : (وأما القسم التخييلي : فهو الذي لايمكن أن يقال : إنه صدق ، وإن ماأثبتهُ ثابت ، ومانفاه منفي ، وهو مفتن المذاهب ، كثير المسالك ، لايكاد يحصر إلا تقريباً . .) (٦٧) .

وينتهي الى القول : (وجملة الحديث أن الذي أريدهُ بالتخييل – ههنا – مايثبت فيه الشاعر أمراً ، هو غير ثابت أصلاً ، ويدعي دعوى لا طريق الى تحصيلها او يقول قولاً يخدع به نفسهُ ، ويريها ما لا ترى)(٦٨) ويطيل الحديث عن التخييل في التمثيل وغيره ، وتابعه في كون التخييل تمثيلاً وتصويراً منتزعاً من الخيال كل الذين جاءوا بعده ، وإن لم يكن الجرجاني أول متحدث عن الخيال والتخييل . وقد انتهى البلاغيون الى تعريفه بما نقله ابن الزملكاني بقوله (هو تصوير حقيقة الشيء ، حتى يتوهم أنه ذو صورة تشاهد ، وأنه مما يظهر للعيان ، كقوله تعالى (والارضُ جميعاً قبضتهُ يومَ القيامة ، والسماوات مطوياتٌ بيمينه) (٦٧ الزمر ٣٩) (٦٩) فأين تكون التورية من هذا التصوير

(٦٥) المفردات – مادة (خيل)

(٦٦–٦٨) على التوالي – اسرار البلاغة – ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٣ ، وانظر التخييل فيها ٢٤١–٢٧٣

وكيف يكون التخييل اسماً لها ؟ ؟

خامساً : المغالطة المعنوية : انفرد ابن الأثير في درج التورية بالمغالطات المعنوية قائلاً (المغالطات المعنوية : وهذا النوع من أحلى مااستعمل في الكلام ، وألطفه لما فيه من التورية ،وحقيقته أن يذكر معنى من المعاني له مثل في شيء آخر ونقيض . والنقيض أحسن موقعاً ، والطف مأخذاً) (٧٠) وجاء بأمثلة التورية ، فكأن التورية – عنده – شيء من المغالطات وليست هي المغالطات ذاتها ، فليس لنا أن نذهب الى أنه سماها به .

وبعد هذا كله لنا أن ننتهي الى أن التورية انسب هذه الاسماء وأولاها بالاقتصار عليه . واذا كان لابد من الاشارة الى غيره من اسمائها فالايهام . وما سواهما فحري بنا أن نعرض عنه ، ولا نلتفت اليه .

أنواعها

عبثاً يحاول من أراد أن يقف على أنواع التورية قبل القرن الثامن الهجري . فان الذين ذكروا التورية – قبل هذا – لم يحاولوا تفريعها وتقسيمها .

وقد لانبعد اذا قلنا إن الخطيب القزويني يمكن أن يعد من أوائل من ذكر نوعيها : المجردة والمرشحة قائلاً : (. . وهي ضربان : مجردة ومرشحة . أما المجردة : فهي التي لاتجامع شيئاً مما يلائم المورّى به أعني القريب . . . . وأما المرشحة : فهي التي قرن بها ما يلائم المورّى به ، إما قبلها ، وإما بعدها . .) (٧١) .

وكان من الطبيعي أن يتابعه في هذا كل الذين كان كتابه قطب الرحى لمؤلفاتهم ، وإن كانوا قد ناقشوه فيما مثل به لكل من النوعين مناقشات مستفيضة صائبة .

(٦٩) التبيان – ١٧٨

(٧٠) المثل السائر ٣/٧٦ .

(٧١) الايضاح – ٢/٣٥٣ ، وانظر التلخيص – ٣٥٩–٣٦٠

واذا كان الذين ذكروا التورية قبله قد أغفلوا – عن قصد أو غير قصد – ذكر انواعها فان أكثر من واحد من البلاغيين عامة والمعنيين بالبديع خاصة – ممن جاءوا بعده – كانوا قد أغفلوا ذكرها كذلك . فعاب الحموي عليهم إغفالهم قائلاً :

(. . فان الشيخ صفي الدين الحلي لم يذكر في شرح بديعيته نوعاً من أنواع التورية ، ولا قسماً من اقسامها . بل ذكر حد التورية الذي أجمع الناس عليه . .. ومن أين يعرف الطالب من هذا الحد : التورية المجردة ، والتورية المرشحة وقسميها ، والمبينة وقسميها ، والمهيأة وأقسامها ؟ وكذلك فعل العلامة زكي الدين بن أبي الاصبع لم يذكر في كتابه المسمى تحرير التحبير نوعاً من أنواعها ، ولا قسماً من أقسامها . مع أن كتابهُ ماوضع في هذا الفن له نظير . . . وأما صاحب التلخيص فانه قال : . . . .

وهي ضربان : مجردة ومرشحة ، ولم يزد على هذا القدر شيئاً) (٧٢) .

وذهب السيوطي الى أبعد من هذا في لوم القزويني ورميه بالتقصير فقال : (. . هذا ماذكره صاحب التلخيص . ولعمري لقد قصر في شأن التورية ، وما أنصفها ، حيث أخلّ بذكر أقسامها . وهي اعظم أنواع هذا الفن وأجلّه) (٧٣) فكان من الطبيعي أن يتابع الحموي فيما ذهب اليه من ذكره لأقسامها وفروعها كما تابعهما ابن معصوم وأكثر المتحدثين عنها بعدهم .

وهم جميعاً كانوا قد أخذوا ماذكره القزويني وأوضحهُ ومثل به لكل من النوعين اللذين ذكرهما ، وهما : المجردة والمرشحة .

أما المبينة : فهي – عندهم – التي تجامع ملائماً للمعنى البعيد – المورّى عنه – إما قبلها ، وإما بعدها .

وأما المهيأة : فهي التي تفتقر الى ذكر لفظ يلائم المعنى البعيد – أيضاً –

(٧٢) الخزانة – ٢٤٣ .

(٧٣) عقود الجمان – ١١٥

تتهيأ به التورية لاحتمال المعنيين ، إما قبلها وإما بعدها ، وإلا لم تتهيأ التورية . أو تكون التورية بلفظين ، لولا كل منهما لم تتهيأ التورية في الآخر . فهي بهذا ثلاثة أنواع (٧٤) وتهيأ لهم أنهم قد أحسنوا صنعاً ، وتلافوا نقصاً ، ورفعوا قدر التورية ، وأبرزوا أهميتها بكثرة ماذكروه من انواعها وفروعها. وكأن أهميتها لا تتجلى إلا بكثرة أنواعها وأقسامها .

ولو أن ذكر فروعها وأقسامها بالأهمية التي تصوروها لما أغفلهُ الذين سبقوا القزويني وعاصروه وغير واحد ممن جاءوا بعده كابن أبي الاصبع وصفي الدين الحلي مع أنهما علمان في البديع خاصة .

وفاتهم أن القزويني الذي لاموه كان قد أصاب فيما ذكره من أنواعها وما أغفلهُ . فالقريب من معنيي التورية لايكون قريباً ،مالم يكن هناك مايقرِّبهُ من حال أو مقال . فالمجردة أغنى فيها الحال عن المقال في تقريب غير المراد . والمرشحة لم يسعفها الحال – في تقريب غير المراد – فأسعفها المقال كيما يتم الايهام .

فملاءمة المعنى القريب (غير المراد) لها مايبررها خدمة للايهام المطلوب . أما المبينة والمهيأة فهما مجانبان لطبيعة التورية أو الايهام،لما يتقدمهما أو يتأخر عنهما مما يلائم المعنى البعيد (المراد) . اذ كيف يريد المتكلم إخفاء معنى من المعاني ، وصرف ذهن السامع عنه ، ويتولى ستره واخفاءه بمعنى آخر لايريده ويأتي بعد هذا كله بما يلائم هذا الذي أراد اخفاءهُ ، ويقود إليه ، ويكشف مكمنهُ ؟

والغريب أن هؤلاء الذين تعصبوا لهذه الأنواع من التورية وفروعها لم يصنفوا ماأوردوه منها في كتبهم بحسب أنواعها وفروعها ، مع كثرة ما أوردوه لها من أمثلة وشواهد لاتكاد تحصى لكثرتها . فقد ملأ الحموي

(٧٤) الخزانة – ٣٥١–٣٥٥ ، والكتب التي تحدثت عن انواع التورية بعدها .

بأمثلتها مايزيد على مائة وعشرين صفحة من صفحات كتابه (٧٥) .

والأغرب من هذا أنهم يرون المجردة – وحدها – التورية المحضة دون غيرها ، فقد نص ابن أبي الاصبع على هذا بقوله :

(. . . إن من التورية ما لايحتاج الى ترشيح ، وهي التورية المحضة)(٧٦) فالتورية الحقة أو المحضة : هي التي لاتحتاج الى ترشيح فضلاً عن التهيئة والتبيين . فهي وحدها التورية الطبيعية ، التي تأتي استجابة لداعيها عفو الخاطر ، وتواتي ذوي الفطنة والبديهة اليقظة . كتورية الرسول – صلى الله عليه وسلم – فقد تجردت مما يلائم أياً من المعنيين : القريب والبعيد .

ويمكن أن تليها التورية المرشحة : وهي التي لايعول فيها على الحال وحده ،بل يستعان فيها بلفظ آخر غير لفظ التورية لضمان الايهام وصرف ذهن السامع ، الى المعنى القريب غير المراد لكونه مما يلائمه . كتورية أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – في قوله :

(هاد يهديني الطريق أو السبيل) . فالتورية في هادٍ والطريق أكثر ملاءمة للقريب غير المراد فأسهم مع الحال التي كانا فيها في إيهام السامع .

غير أن البلاغيين عمدوا الى ماينازعون فيه من أمثلة هذا النوع كقول يحيى بن منصور الذهلي ، وهو شاعر اسلامي من شعراء الحماسة :

فَلَمّا نأت عَنّا العَشِيرَةُ كلها
أَنَخْنا فَحالَفْنا السُّيُوفَ عَلى الدَّهْرِ
فَما أَسْلَمَتْنا عِنْدَ يَومِ كَرِيهَةٍ
وَلا نَحْنُ أَغْضَيْنا الجُفُونَ عَلى وِتْرِ (٧٧)

فقال الحموي : (الشاهد في الجفون . فانها تحتمل جفون العين ، وهذا

(٧٥) الخزانة – ٢٣٩–٣٥٥ (٧٦) تحرير التحبير – ٢٧١
(٧٧) ديوان الحماسة – تحقيق الدكتور عبدالمنعم أحمد صالح – ١٠٢

هو المعنى القريب المورى به . وقد تقدم لازم من لوازمه على جهة الترشيح ، وهو الاغضاء لانه من لوازم العين . وتحتمل أن تكون جفون السيوف ، أي : أغمادها . وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه . وهو مراد الناظم) (٧٨) ولا أدري كيف يصرف الجفون الى الأغماد بعد الذي نص عليه من أن الاغضاء من لوازم العين وليس من لوازم الغمد ؟ ؟ فالاغضاء تقريب جفني العين ، ولا يقترب جفنا الغمد من بعضهما استُلَّ أو أغمد . كما أن الاغضاء على الشيء كناية تمثيلية عن السكوت ، كتكنيتهم عن الحيرة والتردد بقولهم أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى . وقد اشتهرت هذه الكناية حتى صارت تعنيه لغة ، ففي القاموس المحيط : أغضى على الشيء : سكت (٧٩) .

أما المبينة : فقد مثلوا لها بما ينازعون فيه أيضاً . بل بما تنازعوا فيه هم قبل غيرهم كقول البحتري :

وَوَرَاءَ تَسْدِيَةِ الوِشاحِ مَلِيَّةٌ
بِالحُسْنِ تَمْلُحُ في القُلُوبِ وتَعْذُبُ(٨٠)

فقال الحموي : (الشاهد هنا في تملح . فانه يحتمل أن يكون من الملوحة ، التي هي ضد العذوبة . وهذا هو المعنى القريب ، المورى به . ويحتمل أن يكون من الملاحة التي هي عبارة عن الحسن . وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه . وهو مراد الناظم . وقد تقدم من لوازمه على جهة التبيين (ملية بالحسن) قلت : هذا الشاهد الذي استشهدوا به من نظم البحتري فيه نظر) (٨١) .

وعندي أن هذا البيت أبعد مايكون عن التورية . فتملح لايمكن صرفها

---

(٧٨) الخزانة – ٣٥٢ (٧٩) مادة (غضي)

(٨٠) ديوانه – تحقيق الصيرفي – ٧٢/١ ، وقد حرف فيه (الوشاح) الى (الوشاة)

(٨١) الخزانة – ٣٥٣

الى الملوحة بحال ، فالبيت في الغزل ، ومن أبيات الغزل الجميلة ، فما علاقة الملوحة به ؟ ؟

وأين يكون مكان هذه الملوحة من القلوب ؟ ؟

أما قول الشاعر

أَرى ذَنَبَ السِّرْحانِ في الأُفُقِ ساطِعاً
فَهَلْ مُمْكِنٌ أَنَّ الغَزالَةَ تَطْلَعُ ؟

فقد قال فيه الحموي : (الشاهد هنا في موضعين ، أحدهما : ذنب السرحان . فانه يحتمل أول ضوء الفجر . وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه . وهو مراد الناظم . وقد بينهُ بذكر لازمهِ بعده بقوله : ساطعاً .

ويحتمل ذنب الحيوان المعروف . وهذا هو المعنى القريب المورى به) (٨٢) . وأعرض عن ذكر الموضع الثاني الذي أشار اليه . ولا اشك في أنه يريد به الغزالة .

والغريب أن الشاعر يذكر السطوع صراحة، ويصرف به الأذهان الى أن مراده بذنب السرحان الفجر لاذنب الحيوان المعروف، ومع ذلك نصر على أنه يحتمل هذا وهذا . وذنب السرحان من غير ماذكر للسطوع وغيره كناية تمثيلية عن الفجر .

وقد ورد في الحديث الشريف تمثيل الفجر به (٨٣) . فتمثيل الفجر بذنب السرحان شائع معروف منذ ذلك الحين ان لم يكن قبله .

وبعد هذا وذاك فذنب السرحان لفظان وليسا لفظاً واحداً . والتورية لفظ له معنيان . . الخ . وكل هذا لم يحل بينهم وبين حملهما على التورية وكذلك قول ابن سناء الملك:

(٨٢) الخزانة ٣٥٣ (٨٣) النهاية في غريب الحديث – ٣٥٨/٢ .

أما وَاللهِ لَولا خَوفُ سُخْطِكْ
لَهانَ عَلَيَّ ما أَلْقَى بِرَهْطِكْ
مَلَكْتِ الخافِقَيْنِ فَتِهْتِ عُجْباً
وَلَيسَ هُما سِوَى قَلْبِي وقُرْطِكْ (٨٤)

فقال الحموي (الشاهد هنا في الخافقين فانه يحتمل أن يريد قلبه وقرط محبوبه وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه . وهو مراد الناظم . وقد بينه بالنص عليه فانه صرح بعد الخافقين بذكر القلب والقرط .

ويحتمل أن يريد ملك المشرق والمغرب . وهذا هو المعنى القريب المورى به) (٨٥) أليس من أعجب العجب أن يقول (ويحتمل) بعد كل الذي قاله هو لاغيره (. . . وهو مراد الناظم . وقد بينه بالنص عليه فانه صرح بعد الخافقين بذكر القلب والقرط) فما الذي يمكنني أن أقوله أكثر من هذا الذي قاله . أين اذاً الايهام فضلاً عن تقصده وتعمده ؟ ؟ اذا كان الشاعر قد بينَ المراد وصرح به ونص عليه ؟ ؟

الست محقاً فيما ذهبت اليه من أن هذا النوع ليس من التورية في شيء لمجانبته الايهام ؟

أما المهيأة فيكفينا أن نقف على أشهر مامثلوا به لها أو لقسم من أقسامها وهو قول عمر بن أبي ربيعة :

أَيُّها المُنْكِحُ الثُّرَيّا سُهَيْلاً
عَمْرَكَ اللهُ كَيْفَ يَلْتَقِيانِ
هي شامِيَّةٌ إذا ما اسْتَقَلَّتْ
وَسُهَيْلٌ إذا اسْتَقَلَّ يَمانِي (٨٦)

---

(٨٤) لاوجود لهما في ديوانه – طبعة حيدر آباد ١٩٥٨ .
(٨٥) الخزانة – ٣٥٣ (٨٦) المرجع نفسه – ٣٥٤

إذ قال الحموي : (الشاهد في البيت الأول في الثريا وسهيل . فان الثريا يحتمل أن يكون أراد بها بنت علي بن عبدالله بن الحارث بن أُمية الاصغر . وهذا هو المعنى البعيد المورى به عنه ، وهو المراد . والقريب ثريا السماء . وهذا هو المعنى القريب ، المورى به . وسهيل يحتمل أيضاً سهيل بن عوف . وقيل : كان رجـلاً مشهوراً من اليمن . وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه . ويحتمل النجم المعروف بسهيل . وهذا هو المعنى القريب المورى به . ولولا ذكر الثريا التي هي النجم ، لم ينتبه السامع لسهيل . وكل واحد منهما صالح للتورية) (٨٧) .

وما سألوا أنفسهم لماذا يوري عمر بن أبي ربيعة عن الثريا بعد كل الذي قاله فيها صراحة كقوله المشهور شهرة الأمثال

مَنْ رَسُولي إلى الثُّرَيا فانّي ضِقْتُ ذَرْعاً بهَجْرِها وَالكتابِ

وغيره ؟ ويقولون بالتورية في الثريا بعد أن عرفوها وذكروا اسمها واسم ابيها وجدها وجد جدها . ويقولون بالتورية ويتناسون قوله (أيها المنكح)

وعلى أيةِ حال فاني لاأدري كيف جاءوا بمثل هذه الشواهد وأين كانوا عما حَدُّوا به التورية ؟ ؟ وماهو مفهومها لديهم ؟ ؟ . والذي أطمئن اليه أنّ أيّاً من هذين النوعين ليس من التورية في شيء لا من قريب ولا من بعيد . فهما مجانبان لما فيها من إيهام متعمد مقصود .

القائلون بوجودها في القرآن الكريم وأقوالهم

يمكن أن يعد السكاكي من أوائل من نص صراحة على وجودها في القرآن الكريم ، ان لم يكن أولهم . فقال بعد أن حد الايهام ومثل له ببيت شعري أوضح مافيه من إيهام :

(. . . وقوله سبحانه (الرَّحْمنُ عَلَى العَرْشِ استَوى) (٥ طه ٢٠) .

(٨٧) ديوانه – ٥٠٣

وقوله : « والأرْضُ جَميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامَةِ ،والسّمواتُ مَطْوِيّاتٌ بيَمينِهِ » (٦٧ الزمر ٣٩) .

وأكثر المتشابهات من هذا القبيل .) (٨٨) .

وقال ابن أبي الاصبع بعد أن ذكر حد التورية :

(. . ومنها قوله تعالى : « قالُوا تَاللهِ إنّكَ لَفي ضَلالكَ القَديم » (٩٥ يوسف ١٢) فانظر الى كون الضلال – ههنا – يحتمل الحب ، وضد الهدى . وكيف استعمله أولاد يعقوب – عليه السلام – ضد الهدى ، فوروا به عن الحب ، ليعلم أن المراد ماأهماوا ، لا مااستعملوا .

ومن ذلك – أيضاً – قوله تعالى : « فَاليَومَ نُنَجّيكَ ببَدَنِكَ لتَكُونَ لمِنْ خَلْفَكَ آيَةً » (٩٢ يونس ١٠) . على رأي من رأى أن البدن – ههنا – الدرع . فان البدن يطلق على الجسم ، وعلى الدرع . وهو – بهذ التفسير – في الظاهر قد استعمله بمعنى الجسم ، وأهمل معنى الدرع . ومراده ما أهمل، لا ما استعمل . فان نجاة فرعون – أي خروجه من البحر بعد الغرق – بدرعه أعجب آيةً من خروجه مجرداً .

ومن التورية اللطيفة ، قوله تعالى بعد ذكر أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، حيث قال : « وَلَئِنْ أَتَيْتَ الّذينَ أُوتُوا الكتابَ بكُلّ آيَةٍ ، ماتَبِعوا قِبْلَتَكَ . وما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ، وَما بَعْضُهُم بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ » (١٤٥ البقرة ٢) . ولما كان الخطاب لموسى – عليه السلام – من جانب الطور الغربي ، وتوجهت اليهود اليه . وتوجهت النصارى الى الشرق . وكانت قبلة المسلمين وسطاً بين القبلتين ، قال سبحانه وتعالى « وكَذلكَ جَعَلْناكُم أُمّةً وَسَطاً » (١٤٣ البقرة ٢) ، أي : خياراً . وظاهر اللفظ يوهم التوسط لاحتمالها المعنيين .

(٨٨) المفتاح – ٢٢٦

ولما كان المراد – والله أعلم – أحد المعنيين الذي هو الخيار ، دون الآخر ، صلحت أن تكون من أمثلة هذا الباب . والله أعلم) (٨٩) . مع أنه كان قد اقتصر في تحرير التحبير على الآية الأولى فقط ، فقال (واذا وصلت الى ماوقع من التورية في الكتاب العزيز ، وصلت الى الغاية القصوى ، وهي قوله تعالى « قالوا تَاللهِ إنّكَ لَفِي ضَلالِكَ القَدِيمِ » (٩٠)

وقال القزويني : (– .. أما المجردة : فهي التي لاتجامع شيئاً مما يلائم المورّى به أعني المعنى القريب ، كقوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » (٥ طه ٢٠) .

وأما المرشحة : فهي التي قرن بها مايلائم المورى به ، إما قبلها كقوله تعالى : « وَالسّماء بَنَيْناها بأيْدٍ ، وإنّا لَمُوسِعُونَ » (٤٧ الذاريات ٥٠) .. وقال السكاكي أكثر متشابهات القرآن من التورية) (٩١) .

ونقل الحموي عن الزمخشري – ٥٣٨ هـ أنه قال :

(ولا نرى باباً في البيان أدق ، ولا الطف من هذا الباب . ولا أعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله وكلام نبيه – صلى الله عليه وسلم – وكلام صحابته – رضي الله عنهم أجميعن – فمن ذلك قوله تعالى : « الرَّحْمنُ عَلى العَرْشِ اسْتَوَى) » (٥ طه ٢٠) لأن الاستواء على معنيين : احدهما الاستقرار في المكان ، وهو المعنى القريب المورّى به ، الذي هو غير مقصود ، لأن الحق – تعالى وتقدس – مُنزه عن ذلك . والثاني : الاستيلاء والملك ، وهو المعنى البعيد المقصود ، الذي ورى عنه بالقريب المذكور . انتهى) (٩٢) .

كما أخذ الحموي ماقاله القزويني في المجردة والمرشحة ، ومامثل به لهما من القرآن الكريم من غير أن ينسب ماأخذه لصاحبه (٩٣) .

---

(٨٩) بديع القرآن – ١٠٢–١٠٣ (٩٠) تحرير التحبير – ٢٧٠
(٩١) الايضاح – ٣٥٣/٢ ، وانظر التلخيص – ٣٥٩–٣٦٠
(٩٢) الخزانة – ٢٤٠ (٩٣) المرجع نفسه – ٣٥١–٣٥٢

وأخذ السيوطي مانقلهُ الحموي عن الزمخشري ، غير أنه عزا القول للزمخشري مباشرة ،وغيّرَ فيه عبارة(من هذاالباب)الى لفظ(التورية) (٩٤)

وأخذ ابن معصوم ماعزاه السيوطي للزمخشري فنسبه اليه مباشرة، والحق أن الزمخشري لم يتحدث عن التورية . وإنما تحدث عن التمثيل التخييلي أو التخييل (٩٥) فقال : (ولا ترى باباً في علم البيان أدق ، ولا أرق ، ولا ألطف من هذا الباب ، ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن ، وسائر الكتب السماوية ، وكلام الانبياء منه فان أكثره أو أغلبهُ تخييلات) (٩٦) .

فأين هذا مما نقلوهُ عنهُ ؟ ؟

خلو القرآن الكريم منها

ألم أجد من نص صراحةً على خلو القرآن الكريم من التورية ، فضلاً عن تعليل خلوه منها ، والبرهنة عليه ، مع كثرة الذين واجهتهم النصوص القائلة بوجودها فيه . فمر الباحثون بتلك النصوص ، أو مرت بهم وكأنها من البديهيات المسلم بها ، حتى أولئك الذين ناقشوا — في الآيات التي أُوردت أمثلة لهـــا — مناقشات مستفيضة ، انتهت بهم الى أنها ليست من أمثلة التورية وشواهدها .

واستطيع أن أقرر باطمئنان كامل خلو القرآن الكريم منها خلواً تاماً . ولا أريد بهذا تقليل شأنها ، والحط من قيمتها — بعد الذي أبرزته من أمثلتها الاصيلة وأوضحته من ضرورتها في كثير من المواقف ، وكونها السبيل التي لاسبيل غيرها ، يمكن الالتجاء إليها في تلك المواقف . وأنها دليل تمكن صاحبها من اللغة وعركه لاساليب التعبير فيها ، وخبرته بفنون بلاغتها وفصاحتها . وأنها — بعد هذا كله — علامة ذكائه ، وبارقة فطنته ، وحضور

(٩٤) عقود الجمان — ١١٥ (٩٥) أنوار الربيع — ٥/٥
(٩٦) الكشاف — ٣٣/٣

بديهيته ، وبراعة تصرفه ، في مواجهة المواقف الحرجة بما تقتضيه وتتطلبه ، وإنما أريد أن أوضح أنها – مع هـذا الذي قاله فيها وقاله الآخرون قبلي – تختلف في طبيعتها عن طبيعة القرآن الكريم إختلافاً ظاهراً ، وتجانبه مجانبة لاسبيل الى التوفيق بينهما. وأن هذا الذي قيل في أهميتها ، لايغير من طبيعتها القائمة على الغش ، والخداع والتضليل والايهام المتعمد المقصود . وهو ماتؤيدني فيه دلالتها اللغوية والاصطلاحية والأمثلة الخاصة بها، الخالصة لها، لا التي الحقت بها قسراً ، عن قصد أو غير قصد . فضلاً عن اسميها اللذين عرفت بهما : التورية والايهام .

فاذا كانت هذه هي التورية ، وهذه طبيعتها فهل بالقرآن الكريم حاجة اليها ؟ ؟

ولا أراني بحاجة الى إيضاح طبيعة القرآن الكريم وما يرمي إليه ، فهو كتاب الله المنزل لهداية العباد ، وإخراجهم من الظلمات الى النور :

قال تعالى : « كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ ، لِتُخْرِجَ النّاسَ مِنِ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ » (١ ابراهيم ١٤) فهو كتاب هداية وإرشاد وتوجيه ، وقد سماه سبحانه وتعالى نوراً لهدايته ، فقال تعالى : « يا أَيُّها النّاسُ ، قَدْ جاءَكُم بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُم ، وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُم نُوراً مُبِيناً » (١٧٤ النساء ٤) . وقال تعالى في بيانه وهدايته وَعِظَته :

« هذا بَيانٌ لِلنّاسِ ،وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ » (١٣٨ آل عمران ٣)

وقال عزَّ من قائل : « وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ » (٨٩ النحل ١٦) .

والآيات الكريمة في هذه المعاني أكثر من كثيرة ، يمكن الرجوع اليها بسهولة ويسر (٩٧) فهذه هي طبيعة القرآن الكريم ، والغرض منه . وقد اهتدى به المسلمون منذ نزوله الى الآن . وسيظلون – ان شاء الله – يهتدون بهديه ،

(٩٧) المعجم المفهرس لالفاظ القرآن – (بين) ، (نور) ، (هدى)

ويقتبسون من نوره مابقى مسلم منهم الى يوم تقوم الساعة . فكيف يمكن أن تقتحم التورية – وهي على ماهي عليه من إيهام متعمد مقصود – رحاب هذا الكتاب ؟ ؟ ؟

وكون القرآن عربياً جارياً على أساليب العرب ، وطرائقها في التعبير ، وسبلها في تزيين كلامها وتحسينه ، لايوجب أن تكون فيه كل تلك الألوان التي استخدموها ماوافقه منها ، وما لم يوافقهُ .

وكونه – كما قيل فيه – حَمّالَ أَوجُهٍ ، أو له ظهر وبطن ، وغير ذلك مما يشير الى اختلاف مستويات الناس في فهمه وإدراكه ، لايعني أنه توريات وانما يعني : أنه نص أدبي رفيع ، ثري معطاء ، لاينضب معينه باغتراف المغترفين منه . واختلاف الناس في فهمه راجع الى خصبه وثرائه من جهة ، وأختلافهم في قابلياتهم وقدراتهم ، وتباين مداركهم من جهة أخرى .

وقد مثله الله سبحانه وتعالى بالماء المنزل من السماء وقد توزعته الأودية كل بقدره (٩٨) . فقال تعالى : « أَنْزَلَ مِن السّماءِ ماءً ، فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها . . . » (١٧ الرعد ١٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَثَلي وَمَثَلُ مابَعَثَنِي اللهُ به من الهُدَى وَالعِلْمِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصابَ الأَرضَ ، فَكانَتْ مِنها طائفةٌ قَبِلَتْ الماءَ فأَنْبَتَتْ الكَلأَ والعُشْبَ الكثيرَ . وَكانَتْ مِنها أَجادِبُ أَمْسَكَتْ الماءَ ، فَنَفَعَ اللهُ بِها النّاسَ ، فَشَرِبُوا وَرَعوا وسقوا . وأَصابَ طائفةً أُخرى مِنها الماءُ وهي قِيعانٌ لاتُمْسِكُ ماءً ، ولا تُنْبِتُ كَلأً .

فذلكَ مَثَلُ مَنْ فقه في دينِ الله ، وتَفَقَّهَ بما بَعَثَنِي اللهُ به ، فَعَلِمَ وعَلَّمَ . وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْساً ، وَلم يَقْبَلْ هُدَى

(٩٨) الأمثال في القرآن الكريم – الدكتور محمد جابر فياض – ١٦٨

اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ » (٩٩) .

وهذان المثلان للقرآن كله ، محكمه ومتشابهه . فالآيات المتشابهات ليست توريات ، ولا شبيهة بالتوريات ، لا من قريب ولا من بعيد .

فالله سبحانه وتعالى لم يرد بها إيهام عباده كما هو الحال في التوريات (فما أنزل الله تعالى من آية – كما قال الحسن البصري – إلا وهو يحب أن يُعْلَم فيم أنزلت ، وماذا عنى بها) (١٠٠) .

واذا لم يرد الله إيهام عباده – وحاشا لله أن يريده – فمحال أن يقع الايهام في كلامه بغير إرادته . وهذا وحده كاف لنفي التورية أو الإيهام عن القرآن الكريم نفياً قاطعاً . ويؤيده أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – واصحابه وتابعيهم – رضوان الله تعالى عليهم – كانوا قد قرأوا القرآن الكريم ، وتدارسوه وفسروه ، فما أشكل عليهم شي ءمنه ، ولا توقف مفسر منهم عن تفسير آية من آياته .

وما أن أخذ المسلمون نصيبهم من الفلسفة والمنطق وعلم الكلام ، ونظروا الى ذات الله – سبحانه وتعالى – وصفاته وأفعاله ، وما أخبر به من أمور الغيب بمنظار هذه العلوم ، مبتعدين عن سلامة الفطرة وصفائها ، حتى اشتد الخلاف في الآيات المتشابهات . ومع هذا لم يقل أحد بأنها توريات حتى أولئك الذين أَوَّلُوا ظاهر الفاظها .

كما لم يذهب أي من المفسرين الى شيء من هذا ، مع كثرة كتب التفسير وتنوعها واختلافها باختلاف مؤلفيها ومذاهبهم ، ولا يعقل أن تكون الآيات المتشابهات توريات ولا يشير عالم من كل علماء الأمة في كل تلك الأجيال التي تعاقبت منذ نزول القرآن الى القرن السابع الى هذا أو ينبه إليه ، ويغفل

(٩٩) صحيح البخاري – ١/٣٠ ، صحيح مسلم ٤/١٧٨٧ ، وانظر بقية تخريجه في أمثال الحديث النبوي الشريف ٢/٦٩٣

(١٠٠) الاكليل في المتشابه والتأويل – ابن تيمية – ١٨

كل أولئك العلماء أو يتغافلون ، ويتنبه لهذا السكاكي أو غيره من معاصريه .

ولو كانت الآيات المتشابهات توريات لها معان ظاهرة غير مرادة وخفية هي المرادة لما تفرق المسلمون فيها الى أكثر من فرقتين : ظاهرية ضالة ، وباطنية مهتدية . أما وقد تفرق المسلمون فيها الى فرق عديدة وتعلقت الهداية بتنزيه الخالق جلّ شأنهُ عن التشبيه والتعطيل ، لا بظاهر المعنى ، ولا بخفيّه ، فليست هذه الآيات من التوريات في شيٍ .

فمن أهل الظاهر من اهتدى للتنزيه بتجنبه التشبيه والتجسيم فما حالَ الظاهرُ. بينهم وبين الهداية. ومنهم من انتهى به الظاهر الى التشبيه والتجسيم فضل وأضل. ومن المؤوِّلين من اهتدى للتنزيه أيضاً لتجنبه التعطيل ، فما حال التأويل بينهم وبين الهداية . ومنهم من انتهى به التأويل الى التعطيل فضل وأضل وهكذا نجد أن التنزيه هو المراد من ظاهر معنى اللفظ أو خَفِيِّهِ .

وبعد هذا كله فان الآيات التي مَثّلُوا بها للتورية يمكن أن تكون حكماً في وجودها أو عدمه .

ولنقف على ماقاله المفسرون فيها .

أولاً : قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » (٥ طه ٢٠) .

قال الطبري : (يقول تعالى ذكره : الرحمن على عرشه ارتفع وعلا .

وقد بينا الاستواء بشواهده فيما مضى . وذكرنا اختلاف المختلفين فيه ، فأغنى عن إعادته في هذا الموضع) (١٠١) .

وقال في الموضع الذي أشار اليه بقوله المتقدم :

(قال أبو جعفر : الاستواء في كلام العرب منصرف على وجوه : منها انتهاء شباب الرجل وقوته ، فيقال – اذا صار الرجل كذلك – قد استوى الرجل .

(١٠١) جامع البيان – ١٠٤/١٦

ومنها استقامة ماكان فيه من اود في الأمور والاسباب . يقال منه : استوى لفلان أمره ، إذا استقام له بعد اود . . . .

ومنه الاقبال على الشيء بالفعل ، كما يقال : استوى فلان على فلان بما يكرهه ويسوؤه ، بعد الاحسان اليه .

ومنها الاحتياز والاستيلاء ، كقولهم : استوى فلان على المملكة : بمعنى احتوى عليها وحازها .

ومنها العلو والارتفاع ، كقول القائل : استوى فلان على سريره ، يعني به : علوه عليه .

وأولى المعاني بقوله جل ثناؤه (ثُمَّ استَوَى الى السّماءِ فَسَوّاهُنَّ) علا عليهن وارتفع فدبرهن بقدرته ، وخلقهن سبع سموات .

والعجب ممن أنكر المعنى المفهوم من كلام العرب في تأويل قول الله : « ثُمَّ استَوَى إلى السّماءِ » الذي هو بمعنى العلو والارتفاع ، هرباً — عند نفسه — من أن يلزمه — بزعمه — إذا تأوله بمعناه المفهوم — كذلك — أن يكون إنما علا وارتفع بعد أن كان تحتها ، الى أن تأوله بالمجهول من تأويله المستنكر . ثم لم ينج مما هرب منه . فيقال له : زعمت أن تأويل قوله (استوى) : أقبل . أفكان مدبراً عن السماء فأقبل اليها ؟ . فان زعم أن ذلك ليس باقبال فِعْلٍ ، ولكنه إقبال تدبير . قيل له : فكذلك ، فقل : علا عليها علو مُلك وسلطان ، لاعُلُوّ انتقال وزوال . ثم لن يقول في شيء من ذلك قولاً ، إلا لزم في الآخر مثله .

واولا أنا كرهنا إطالة الكتاب بما ليس من جنسه ، لأنبأنا عن فساد قول كل قائل قال في ذلك قولاً — لعقول أهل الحق فيه — مخالفاً . فيما بيّنا منه مايشرف بذي الفهم على مافيه له الكفاية إن شاء الله) (١٠٢) .

(١٠٢) جامع البيان — ١/١٥٠

فأين الظاهر غير المراد ؟ وأين الخفي المراد ؟ أعني أين الايهام المتعمد المقصود والطبري أورد كل معاني الاستواء ودلالاته إيراد بصير ، واختار اختيار خبير ، وجادل مجادلة قدير . ولذا أوردت قوله بأكمله .

واذا كان الطبري يمثل وجهة نظر معنية فهذا ابن عربي يمثل وجهة نظر أخرى يقول : (ومن الآيات المتشابهة آيات الاستواء ، والأحاديث الواردة فيه . ومرجعها عند المحققين الى الآيات المحكمات . وأول ماينبغي تقديمه معنى الاستواء لغةً .

. . . وبعد أن أورد المعاني اللغوية وتفاسير الصحابة والتابعين الموافقة لها قال: وقد ثبت عن الامام مالك – رحمه الله – أنه سئل : كيف استوى ؟ ؟ فقال : كيف غير معقول . والاستواء غير مجهول . والايمان به واجب . والسؤال عنه بدعة .

فقوله : كيف غير معقول ، أي كيف من صفات الحوادث . وكل ماكان من صفات الحوادث ، فاثباته في صفات الله تعالى ينافي مايقتضيه العقل ، فيجزم بنفيه عن الله سبحانه .

قوله : والاستواء غير مجهول : أي أنه معلوم المعنى عند أهل اللغة . والايمان به على الوجه اللائق به تعالى – واجب ، لانه من الايمان بالله وبكتبه

والسؤال عنه بدعة : أي حادث ، لان الصحابة ،– رضي الله عنهم – كانوا عالمين بمعناه اللائق بحسب اللغة ، فلم يحتاجوا للسؤال عنه . فلما جاء من لم يحط بأوضاع لغتهم ، ولا له نور كنورهم يهديه لصفات ربه ، شرع يسأل عن ذلك ، فكان سؤاله سبباً في اشتباهه على الناس ، وزيغهم عن المراد . . .) (١٠٣) .

وأما الزمخشري فقد ذهب الى القول :

(لما كان الاستواء على العرش – وهو سرير المُلك – مما يردف المُلك

(١٠٣) رد المتشابه الى المحكم – ٧١–٧٤ .

جعلوه كنايةً عن الملك ، فقالوا : استوى فلان على العرش : يريدون مَلَكَ ، وان لم يقعد على السرير البتة . وقالوه – أيضاً – لشهرته في ذلك المعنى ، ومساواته مَلَكَ في مؤدّاه ، وان كان أشرح وأبسط ، وأدلّ على صورة الأمر .

ونحوه قولك : يد فلان مبسوطة ، ويد فلان مغلولة : بمعنى أنه جواد أو بخيل ، لافرق بين العبارتين إلا فيما قلت حتى ان لم يبسط يده قط بالنوال أو لم تكن له يد ، قيل فيه : يده مبسوطة لمساواته عندهم قولهم : هو جواد .

ومنه قول الله عز وجل : « قالَتْ اليَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ » أي هو بخيل . « بَلْ يَداهُ مَبْسوطتانِ » أي هو جواد . من غير تصور يَدٍ ، ولا غِلّ ، ولا بسطٍ .

والتفسير بالنعمة ، والتمحل للتثنية من ضيق العطن . والمسافرة عن علم البيان مسيرة أعوام) (١٠٤) .

فالزمخشري العالم المفسر البلاغي المعتزلي لم يذهب بالآية الكريمة الى أكثر من كونها (كناية) ذكرها بصريح لفظها ، وعللها بأن الاستواء على العرش مما يردف المُلك . وأنهم قالوه لشهرته في ذلك المعنى ، ومساواته مَلَكَ في مؤداه . وسخر ممن صرف لفظ – (اليد) في الآية الأخرى – الى النعمة . أي سخر ممن ذهب بها مذهب التورية ، ونعته بضيق العطن ، والمسافرة عن البيان مسيرة اعوام .

هذا ماقاله الزمخشري في هذه الآية وهو الذي قال فيه الحموي في باب التورية (وقال الزمخشري وهو حجة في هذا العلم) وهو كذلك فعلاً .

ثانياً : قوله تعالى : « والأرض جميعاً قبضتهُ يوم القيامة والسمواتُ

(١٠٤) الكشاف – ٢/٢٣٨

مطويات بيمينه » (٦٧ الزمر ٣٩) .

ويغنينا فيها قول الزمخشري نفسه :

(. . . « وما قدروا الله حق قدره » وقرئ بالتشديد ، على معنى : وما عظموه كنه تعظيمه) .

ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه – على طريقة التخييل – فقال : « والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه » .

والغرض من هذا الكلام – إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه – تصوير عظمته ، والتوقيف على جلاله لاغير . من غير ذهاب بالقبضة ، وباليمين الى جهة حقيقة ، أو جهة مجاز .

وكذلك حكم مايروى : أن جبريل – عليه السلام – جاء الى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : ياأبا القاسم : إن الله يمسك السموات يوم القيامة على اصبع ، والأرضين على اصبع ، والجبال على اصبع ، والشجر على اصبع ، والثرى على اصبع ، وسائر الخلق على اصبع ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك (١٠٥) فضحك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تعجباً مما قال . ثم قرأ تصديقاً له (وما قدروا الله حق قدره) الآية

وإنما ضحك أفصح العرب – صلى الله عليه وسلم – وتعجب ، لأنه لم يفهم منه إلا مايفهمه علماء البيان ، من غير تصور إمساك ، ولا إصبع ، ولا هز ، ولا شيء من ذلك . ولكن فهمه وقع – أول شيء وآخره – على الزبدة والخلاصة ، التي هي الدلالة على القدرة الباهرة . وان الافعال العظام – التي تتحير فيها الأفهام والأذهان ، ولا تكتنفها الأوهام ، هينة عليه هواناً لايوصل السامع الى الوقوف عليه إلا اجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من

(١٠٥) رد المتشابه الى المحكم – ٣٢-٣٣ (وفي صحيح البخاري وغيره – جاء حبر من اليهود .)

التخييل .

ولا ترى باباً في علم البيان أدق ، ولا أرق ، ولا ألطف من هذا الباب ولا أنفع ، وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن ، الكريم وسائر الكتب السماوية ، وكلام الأنبياء منه . فان أكثرهُ أو أغلبهُ تخييلات .

وقد زَلّت فيها الأقدام قديماً . وما أُتيَ الزّالّون إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقير ، حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة عِلماً ، لو قدروه حق قدره ، لما خفي عليهم أن العلوم كلها مفتقرة اليه ، وعيال عليه . اذ لايحل عُقَدَها المؤربة ، ولا يَفُلُّ قيودها المكربة إلاّ هو . وكم من آية من آيات التنزيل ، وحديث من أحاديث الرسول قد ضيم ، وسيم الخسف بالتأويلات الغَثّة ، والوجوه الرَثّة ، لأن من تأول ليس من هذا العلم في عير ولا نفير ، ولا يعرف قبيلاً منـــه من دبير) (١٠٦) . فأين التورية ؟ ؟ والحديث من أوله الى آخره عن البيان ومافيه من تخييل ، أو تمثيـــل تخييلي وتصوير . فكيف انقلب الى حديث عن التورية من علم البديع عند الحموي والسيوطي وابن معصوم، ولماذا عمد بعضهم الى الاقتطاع والتغيير والتبديل فيه كيما ينصرف إليها ، ويستشهدون به على أنه إشادة بهـــا — مع ما هم عليه من العـــلم والفضل — وما هو فيها ؟ ؟ ولكن من قديم قيـــل : آفة الرأي الهوى . وإلا فهم أعلم من غيرهم بمراد الزمخشري في حديثه هذا .

ثالثاً : قوله تعالى : « والسّماءَ بَنَيناها بأيْدٍ ، وإنا لَموسِعُونَ » (٤٧ الذاريات ٥٠) ولقد فُسِّر لفظ (الأيْدِ) بالقوة وهو المعنى الذي وضع له اللفظ لغة . فلا تكنية ولا تورية ولا تخييل .

قال الطبري : (. . يقول تعالى ذكره : والسماء رفعناها سقفاً (بقوة)

(١٠٦) الكشاف — ٣/٣٣-٣٤

وبنحو الذي قلنا – في ذلك – قال أهل التأويل . ذكر من قال ذلك . (١٠٧) فنقـــل عن الصحابة والتابعين وتابعيهم – رضي الله تعـــالى عنهم أجمعين – منهم ابن عباس ، ومجاهد وقتادة وغيرهم وجاء بما نقله عنهم بأسانيده .

ولم يذهب الزمخشري الى غير ماذهبوا اليه حيث قال :

(. . . (بأيدٍ) : بقوة . والأيد ، والآد : القوة . وقد آد يئيد ، وهو أيّد . (وإنا لموسعون) : لقادرون ، من الوسع : وهي الطاقة . والموسع : القوي على الانفاق . وعن الحسن : لموسعون الرزق بالمطر . وقيل : جعلنا بينها وبين الأرض سعة) (١٠٨) فاللفظ بمعناه اللغوي ، أو على ماوضع له لغة . قال أبو عبيدة :

« والسماءَ بَنَيْناها بأيْدٍ » أي بقوة) (١٠٩) فأين التورية ؟ ؟ ؟

ولذلك فقد انبرى شرّاح التلخيص للقزويني والسكاكي فيما ذهبا اليه في هذه الآية وآية الاستواء على العرش وذهبوا الى أن الأيد بمعنى القوة لاتورية فيها وأن الاستواء تمثيل أو كناية تمثيلية (١١٠) وهو ماذهب اليه الزمخشري فيهما قبلهم ويكفينا في هذا قول أبي يعقوب المغربي لشمول قوله للآيتين معاً :

(فكانت التورية ، مبنيء على ما أشتهر بين أهل الظاهر من المفسرين، الذين يقتصرون على مايبدو ، لم يظهر لهم – هنا – للأيد وللاستواء إلاّ المعنى البعيد .

أما عند من يوسم بالتحقيق، ممن يمارس مقتضى تراكيب البيان ، فالكلام تمثيل على سبيل الكناية أو الاستعارة . وهو ان مجموع (بنيناها بأيدٍ) نقل عن أصله على طريق التشبيه . وأصله وضع لبنة ومايشبهها على أخرى بقوة الأيدي ، الى الايجاد بالقوة ، لان النفس بالمحسوس أعرف .

(١٠٧) جامع البيان – ٦/٢٧ (١٠٨) الكشاف – ١٣٥/٣
(١٠٩) مجاز القرآن – ٤٦/١ (١١٠) شروح التلخيص – ٣٢٣/٤-٣٢٦

أو على طريق الكناية ، بناء على أن التمثيل يجري فيها . فعبر بمجموع اللفظ التركيبي عن معنى الايجـاد بغاية القوة . وفي كليهما دلالة وتوقيف على عظمة قدرته ، وكنه جلاله الذي يمكن أن يدرك . وهو الكُنْهُ الاجمالي المشتمل على أنه في النهاية في نفس الأمر .

فلا يتمحل لمفرد من مفردات هذا التركيب حقيقة ولا مجاز ، لما تقدم أن لفظ التمثيل ينقل الى المعنى كما هو في المنقول عنه . ان كان حقيقة في أصله يبقى كذلك . وإن كان مجازاً فكذلك . فكأن البناء بالأيدي جعل — هنا — مرادفاً لنهاية القوة في البناء ، ونهاية العظمة في تركيب الشيء. وكذا (على العَرْشِ اسْتَوَى) يجعل تمثيلاً بالتشبيه أو بالكناية للدلالة على ملكه كل شيء . كأنْ جُعل مرادفاً للملك من غير أن يتمحل حقيقة أو مجاز لمفرد من المفردات . بل التجوز باعتبار التركيب .) (١١١)

وأخذ بعض المعاصرين من البلاغيين بما ذهب اليه الزمخشري وشراح التلخيص في الاستواء . فقال أحمد مصطفى المراغي :

(والتحقيق ان ذلك استعارة تمثيلية ، بأن شبهت الهيئة الحاصلة من تصرف المولى في الممكنات بالايجاد والاعدام ، بالهيئة الحاصلة من استقرار الملك على عرشه بجامع أن كلاً ينبئ عن الملك التام . واستعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه على طريق الاستعارة التمثيلية . وقال السكاكي أكثر متشابهات القرآن تورية) (١١٢) .

ونقل عبدالمتعال الصعيدي ماقيل في نفي التورية عن الاستواء والأيد فقال : (هذا ظاهر في حمل (أيد) على الافراد ، فيكون مصدر — آد أيداً — بمعنى اشتد . ولكنه على هذا لايكون من التورية ، لانه لايحتمل إلا هذا المعنى ، وإنما يكون من التورية اذا جعلت (أيد) جمع يد . وحينئذ تفسر بالقوى : جمع قوة .

(١١١) مواهب الفتاح — ٤/٣٢٤-٣٢٦ (١١٢) علوم البلاغة — ٣٣٩

وقيل : إن ذلك لاتورية فيه . وانما هو استعارة تمثيلية شبهت فيها هيئة إيجاد الله السماء بقدرته ، بهيئة البناء الذي هو وضع لبنة على أخرى باليد . وكذلك قيل في الآية السابقة) (١١٣) .

ونقل الدكتور أحمد مطلوب تفسير الزمخشري لآية الاستواء أيضاً (١١٤) واذا كانت هذه الآيات ليست بتوريات مع كونها من أشهر الآيات المتشابهات فإنّ مااستشهد ابن أبي الأصبع لها من آيات أبعد ماتكون عنها . لكونها جميعاً من الآيات المحكمات . ولم يتابعه في الاستشهاد بها متابع . وهو نفسه لم يورد في تحرير التحبير غير واحدة منها ، وهو حين أوردها في بديع القرآن لم يظهر اقتناعهُ بغير ماأورده في التحرير .

ومهما يكن من شيء فانّ (الضلال) فيما حكاه القرآن الكريم من قول أولاد يعقوب لأبيهم : (تَاللهِ إنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ القَدِيم) (٩٥ يوسف ١٢) لم ينصرف الى غير ما وضع له من الخطأ ، ومجانبة الصواب .

قال الطبري (يقول تعالى ذكره : قال الذين قال لهم يعقوب — من ولده — أني لأجدُ ريحَ يوسفَ لولا أن تفندون — تاللهِ أيُّها الرجل إنكَ من حب يوسف وذكرهِ لفي خطئكَ القديم لاتنساه ولا تتسلى عنه . وبنحوالذي قلنا قال أهل التأويل . . .) (١١٥) .

وقال الزمخشري : (. . لفي ذهابك عن الصواب قدماً في افراط حبك ليوسف ولهجك بذكره ؛ ورجائك للقائه . وكان عندهم أنه قد مات)(١١٦).فأين المعنيان؟ وأيها الظاهر غير المراد، والخفي المراد ؟ وأين الايهام المتعمدالمقصود ؟

أما صرفه للبدن عن الجسم أو الجسد الى الدرع في قوله تعالى في فرعون : « فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً » (٩٢يونس١٠).

(١١٣) بغية الايضاح — عبدالمتعال الصعيدي — ٣٠/٤
(١١٤) فنون بلاغية — ٢٩٤ (١١٥) جامع البيان — ٤٠/١٣
(١١٦) الكشاف — ١٢٥

لكون نجاة فرعون بدرعه أعظم آية من نجاته عارياً . كما ذهب . فقد فاته إن الآية ليست بنجاته بدرعه أو غيره مما لاصلة له بالحياة والموت . وانما الآية والعظة والعبرة ، فيما آل اليه أمره بعد الذي كان عليه من طغيان وجبروت وتعال ادّعى معه الربوبية لنفسه . فاذا به جثة هامدة ، لاحراك بها ، ولاحول لها ولا قوة . فظهور جسده مثال شاخص لقدرة الله تعالى ، أكثر من ابتلاع الأمواج له . ففي الحديث النبوي الشريف : « لَيْسَ الخَبَرُ كَالمُعايَنَةِ » (١١٧). وليستيقن من شك في غرقه .

فذكر البدن إنما أريد به الجثة كيلا تنصرف النجاة — قبله — الي نجاته من الغرق حياً شأن كثير ممن ينجون أحياء .

قال الطبري : (. . عن ابن عباس ، قوله « فاليومَ نُنَجِّيْكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً » يقول : انجى الله فرعون لبني اسرائيل من البحر ، فنظروا اليه بعدما غرق . فان قال قائل : ما وجه قوله ببدنك ؟ وهل يجوز أن ينجيه بغير بدنه ، فيحتاج الكلام الى أن يقال فيه ببدنك ؟ — قيل : كان جائزاً أن ينجيه بهيئته حياً كما دخل البحر . فاما كان جائزاً ذلك ، قيل : فاليوم ننجيك ببدنك ، ليعلم أنه ينجيه بالبدن بغير روح ، ولكن ميتاً) (١١٨) .

وأما ماذهب اليه في قوله تعالى : « وكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداء على النّاسِ ، وَيَكونَ الرَّسُولُ عَلَيكُم شَهِيداً » (١٤٣ البقرة ٢) .

من أن الوسط قد يراد به توسط قبلة المسلمين بين قبلتي اليهود والنصارى وقد يراد به الخيار والعدل . فان ذكر الأمة يحول دون صرف الوسط الى القبلة وجهتها فضلاً عما جاء بعده من قوله تعالى تعليلاً لجعلهم وسطاً .

(١١٧) الأمثال في الحديث النبوي — ٦٤٧/٢ والحديث صحيح

(١١٨) جامع البيان — ١١٤/١١

(لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) . فالوسط العدل والخيار الذين يؤخذ بشهادتهم والى هذا ذهب المفسرون . وذكر الوسط لأن (خير الأمور أوساطها) (١١٩) فلا وجه للايهام فيه ولا لافتراض الجهة .

الخلاصة

بعد الذي وقفنا عليه من معنى التورية لغة واصطلاحاً ، والاسماء التي أطلقت عليها ، والانواع التي ذكرت لها ، وطبيعتها ، والدواعي التي تدعو اليها . وقدمها في أدبنا العربي ، وأصالتها فيه . وماقيل عن وجودها في القرآن الكريم ، وخلوه منها . يمكن الانتهاء الى أنها – لغة – إخفاء الشيء بأظهار غيره . ومعناها الاصطلاحي لايكاد يختلف – في جوهره – عن معناها اللغوي فهي : لفظ له معنيان : قريب وبعيد ، يخفي المتكلم المعنى البعيد الذي يريده بالقريب الذي لايريده . ولهذا فالتورية أنسب أسمائها . وأكثرها مطابقة لها . والايهام – بالياء المثناة – ردفها ، لما فيها من تمويه وتضليل .

أما الابهام – بالباء – الموحدة – أو التوجيه ، فليس منها في شيء ، ولا يصح إطلاق أي من اللفظين عليها بعد أن استقلا بلون بديعي آخر له خصائصه ومميزاته . وكذلك التخييل لأخذه من الخيال ، بمعنى : ظل الشيء وصورته . فهو تصوير وتمثيل منتزع من الخيال ، لاصلة له بالتورية من قريب أو بعيد . وكذا ماحُرِّفَ إليه التخييل من تخيير ، في عدد من الكتب البلاغية .

واذا كانت التورية خير اسمائها ، فانّ المجردة منها خير أنواعها وأقواها ، لاستغنائها – في الايهام – بالحال عن المقال ، ولذلك سميت مجردة ونعتت بأنها وحدها التورية المحضة . وتليها المرشحة : وهي التي لايطمئن الموري

(١١٩) الأمثال في الحديث النبوي – ٢/٥٢٥ أخرجه البيهقي وابن سلام وابن الأثير وغيرهم .

فيها الى الحال وحده للوصول للايهام ، فيعمد الى لفظ غير لفظ التورية يقوي به الحال لضمان الايهام المطلوب .

أما النوعان الآخران – المبينة والمهيأة – فليسا من الايهام المتعمد المقصود لما فيهما مما يلائم المعنى البعيد المراد إخفاؤه .

وكون التورية إيهاماً متعمداً مقصوداً ، لايقلل من شأنها ، ولا يضعف من مكانتها فالحياة تتطلبها وتقتضيها بمثل ماتتطلب به الصراحة والوضوح . فلكلٍ مواقفه ، ومناسباته التي لايصلح فيها غيره .

ولكن مهما كان للتورية من أهمية فليس للقرآن الكريم بها حاجة ، لأنهُ كتاب هداية وإرشاد وتوجيه ، وليس كتاب إيهام وتضليل .

★ ★ ★